خديعة التطور



الانهيار العلمي
لنظرية التطور
وخلفياتها
الأيديولوجية

هارون يحيى

بسم الله الرحمن الرحيم

خديعة التطور

الانهيار العلمي لنظرية التطور وخلفياتها الأيديولوجية

تاليف

هارون يحيى

ترجمة

سليمان بايبارا

مراجعة

د. أحمد ممتاز سلطان اورخان محمد علي

حول المؤلف

ولد الكاتب الذي يكتب تحت الاسم المستعار هارون يحيى في أنقرة عام 1956، بعد أن أنهى تعليمه الابتدائي والثانوي في أنقرة، درس الآداب في جامعة ميمار سنان في جامعة استنبول، وفي الثمانينيات بدأ بإصدار كتبه السياسية والدينية . هارون يحيى كاتب مشهور بكتاباته التي تدحض الداروينية وتعرض لعلاقاتها المباشرة مع الإيديولوجيات الدموية المدمرة.



يتكون الاسم القلمي أو المستعار، من اسمي "هارون" و"يحيى" في ذكرى موقرة للنبيَّين اللَّذَين حاربا الكفر والإلحاد، بينما يظهر الخاتم النبوي على الغلاف كرمز لارتباط المعاني التي تحتويها هذه الكتب بمضمون هذا الخاتم. يشير الخاتم النبوي إلى أن القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية، وأن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين. وفي ضوء القرآن والسنة وضع الكاتب هدفه في نسف الأسس الإلحادية والشركية وإبطال كل المزاعم التي تقوم عليها الحركات المعادية للدين، لتكون له كلمة الحق الأخيرة، ويعتبر هذا الخاتم الذي مهر به كتبه بمثابة إعلان عن أهدافه هذه.

تدور جميع كتب المؤلف حول هدف واحد وهو نقل الرسالة القرآنية إلى الناس، وتشجيعهم على الإيمان بالله والتفكر بالموضوعات الإيمانية والوجود الإلهي واليوم الآخر.

تتمتع كتب هارون يحيى بشعبية كبيرة لشريحة واسعة من القراء تمتد من الهند إلى أمريكا، ومن إنكلترا إلى أندونيسيا وبولندا والبوسنة والبرازيل وإسبانيا؛ وقد ترجمت بعض كتبه إلى الفرنسية والإنكليزية والألمانية والبرتغالية والأردية والعربية والألبانية والروسية والأندونيسية.

لقد أثبتت هذه الكتب فائدتها في دعوة غير المؤمنين إلى الإيمان بالله، وتقوية إيمان المؤمنين. فالأسلوب السهل والمقنع الذي تتمتع به هذه الكتب يحقق نتائجاً مضمونة في التأثير السريع والعميق على القارئ. من المستحيل على أي قارئ يقرأ هذه الكتب ويفكر بمحتواها بشكل جدي أن يبقى معتنقاً لأي نوع من أنواع الفلسفة المادية. ولو بقي أحد يحمل لواء الدفاع عنها، فسيكون ذلك من منطلق عاطفي بحت، لأن هذه الكتب تنسف تلك الفلسفات من أساسها. إن جميع الإيديولوجيات التي تقول بنكران وجود الله قد دُحضت اليوم والفضل يعود إلى كتب هارون يحيى.

لا شك أن هذه الخصائص مستمدة من حكمة القرآن ووضوحه؛ وهدف الكاتب من وراء نشر هذه الكتب هو خدمة أولئك الذين يبحثون عن الطريق الصحيح للوصول إلى الله، وليس تحقيق السمعة أو الشهرة، علاوة على أنه لا يوجد هدف مادي من وراء نشر كتبه هذه.

وعلى ضوء هذه الحقائق، فإن الذين يشجعون الآخرين على قراءة هذه الكتب، التي تفتح أعينهم وقلوبهم وترشدهم إلى طريق العبودية لله، يقدمون خدمة لا تقدر بثمن.

من جهة أخرى، يعتبر تناقل الكتب التي تخلق نوعاً من التشويش في ذهن القارئ وتقود الإنسان إلى فوضى إيديولوجية، ولا تؤثر في إزاحة الشكوك من قلوب الناس، مضيعة للوقت والجهد، أما هذه الكتب فمن الواضح أنها لم تكن لتترك هذا الأثر الكبير على القارئ لو كانت تركز على القوة الأدبية للكاتب أكثر من الهدف السامي الذي يسعى إليه، ومن يشك بذلك يمكنه أن يرى أن الهدف الوحيد لكتب هارون يحيى هو هزيمة الكفر

وتكريس القيم الإنسانية.

لا بد من الإشارة إلى أن الحالة السيئة والصراعات التي يعيشها العالم الإسلامي في يومنا هذا ليست إلا نتيجة الابتعاد عن دين الله الحنيف والتوجه نحو الإيديولوجيات الكافرة، وهذا لن ينتهي إلا بالعودة إلى منهج الإيمان والتخلي عن تلك المناهج المضللة، والتوجه إلى القيم والشرائع القرآنية التي عرضها لنا خالق الكون لتكون لنا دستوراً. وبالنظر إلى حالة العالم المتردية والتي تسير به نحو هاوية الفساد والدمار، هناك واجب لا بد من أدائه وإلا... قد لا نصل في الوقت المناسب.

لا نبالغ إذا قلنا: إن مجموعة هارون يحيى قد أخذت على عاتقها هذا الدور القائد، وبعون الله ستكون هذه الكتب الوسيلة التي ستحقق شعوب القرن العشرين من خلالها السلام والعدل والسعادة التي وعد بها القرآن الكريم.

تتضمن أعمال الكاتب: النظام الماسوني الجديد، اليهودية والماسونية، الكوارث التي جرتها الداروينية على العالم، الشيوعية عند الأمبوش، الإيديولوجية الدموية للداروينية: الفاشية، الإسلام يرفض الإرهاب، اليد الخفية في البوسنة، وراء حوادث الإرهاب، وراء حوادث الهولوكوست، قيَم القرآن، الموضوعات 1 ـ 2 ـ 3، سلاح الشيطان: الرومانسية حقائق 1 ـ 2، الغرب يتجه إلى الله، خدعة التطور، أكاذيب التطور، ، الأمم البائدة، لأولي الألباب، انهيار نظرية التطور في عشرين سؤالاً، إجابات دقيقة على التطوريين، النبي موسى، النبي يوسف، العصر الذهبي، إعجاز الله في الألوان، العظمة في كل مكان، حقيقة حياة هذا العالم، القرآن طريق العلم، التصميم في الطبيعة، بذل النفس ونماذج رائعة من السلوك في عالم الحيوان، السرمدية قد بدأت فعلاً، ، خلق الكون، لا تتجاهل، الخلود وحقيقة القدر، معجزة الذرة، المعجزة في الخلية، معجزة الجهاز المناعي، المعجزة في العين، معجزة الخلق في النباتات، المعجزة في العنكبوت، المعجزة في البعوضة، المعجزة في نحل العسل، المعجزة في النملة، الأصل الحقيقي للحياة، الشعور في الخلية، سلسلة من المعجزات، بالعقل يُعرف الله، المعجزة الخضراء في التركيب الضوئي، المعجزة في البروتين، أسرار DNA .

وكتب الكاتب للأطفال: أيها الأطفال كذب داروين!، عالم الحيوان، عظمة السماوات، عالم أصدقائك الصغار، النمل، النحل يبني خليته بإتقان، بناة الجسر المهرة: القنادس.

وتتضمن أعمال الكاتب الأخرى التي تتناول موضوعات قرآنية: المفاهيم الأساسية في القرآن، القِيَم الأخلاقية في القرآن، فهم سريع للإيمان 1 ـ 2 ـ 3، هجر مجتمع الجاهلية، المأوى الحقيقي للمؤمنين: الجنة، القيم الروحانية في القرآن، علوم القرآن، الهجرة في سبيل الله، شخصية المنافقين في القرآن، أسرار المنافق، أسماء الله، تبليغ الرسالة والمجادلة في القرآن، المفاهيم الأساسية في القرآن، إجابات من القرآن، بعث النار، معركة الرسل، عدو الإنسان المُعلن: الشيطان، الوثنية، دين الجاهل، تكبر الشيطان، الصلاة في القرآن، أهمية الوعي في القرآن، يوم البعث، لا تنس أبداً، أحكام القرآن المنسية، شخصية الإنسان في مجتمع الجاهلية، أهمية الصبر في القرآن، معارف عامة من القرآن، حجج الكفر الواهية، الإيمان المتكامل، قبل أن تتوب، تقول رسلنا، رحمة المؤمنين، خشية الله، كابوس الكفر، النبي عيسى آتٍ، الجمال في الحياة في القرآن، مجموعة من جماليات الله 1 ـ 2 ـ 3، مدرسة يوسف، الافتراءات التي تعرض لها الإسلام عبر التاريخ، أهمية اتباع كلام الله، لماذا تخدع نفسك، كيف يفسر الكون القرآن، بعض أسرار القرآن، الله يتجلى في كل مكان، الصبر والعدل في القرآن، أولئك الذين يستمعون إلى القرآن.

إلى القراء الكرام

- إن السبب الكامن وراء اهتمامنا ـ في هذا الكتاب وفي غيره من كتبنا الأخرى ـ بدحض وهدم نظرية التطور هو أن هذه النظرية تشكل الأساس والقاعدة لجميع الفلسفات المناهضة للدين. فالداروينية التي تنكر الخلق فتنكر بالتالي الخالق كانت الباعث والسبب وراء الحاد الكثير من الناس منذ ١٤٠ عاما. لذا كان فضح هذه النظرية وتفنيدها والبرهنة على أنها ليست سوى خديعة وتضليلا من أهم واجباتنا الايمانية. وكان من الضروري وصول هذا الصوت إلى جماهيرنا على أوسع نطاق. ولما كان من المحتمل ألا يستطيع بعضهم سوى قراءة كتاب واحد من كتبنا، راينا من المناسب تقديم خلاصة موجزة حول هذا الموضوع في كل كتاب من كتبنا.

- الشيء الآخر الذي نود إيضاحه يتعلق بمحتوى الكتاب. إن المواضيع الايمانية الموجودة في جميع كتب المؤلف مشروحة وموضحة في ضوء الايات القرآنية. وهذه الكتب تدعو الناس جميعا إلى فهم هذه الايات والعيش بموجب تعاليمه. لقد تم شرح جميع المواضيع المتعلقة بآيات الله بحيث لا تبقى هناك اي شبهة أو تردد في ذهن القارئ.
إن الأسلوب السلس والسهل والرصين المنبعث من القلب هو الذي يسر فهم هذه الكتب من قبل الجميع صغارا وكبارا بسهولة ودون أي صعوبة، وهو الذي جعل هذه الكتب كتبا لا تستطيع أن تتركها قبل اتمام قراءتها. وحتى الذين اتخذوا موقفا معارضا للدين يتأثرون بالحقائق المذكورة في هذه الكتب، ولا يستطيعون انكار تأثرهم بها.

- وكما يستطيع القراء قراءة هذا الكتاب والكتب الأخرى للمؤلف على انفراد، فهم يستطيعون قراءتها بشكل جماعي، أو مناقشتها فيما بينهم والتسامر حولها. إن قراءة هذه الكتب بشكل جماعي ونقل كل فرد رايه وخبرته إلى الآخرين أمر مفيد جدا.

- علاوة على هذا فإن المساهمة في تعريف هذه الكتب ـ التي لم تؤلف إلا لوجه الله تعالى ولمرضاته ـ ونشرها بين الناس تعد خدمة إيمانية كبيرة. لأن الأدلة والبراهين التي يوردها المؤلف في هذه الكتب قوية جدا ومقنعة، لذا كان على كل من يريد خدمة هذا الدين تشويق الآخرين لقراءتها والاستفادة منها.

- هناك أسباب مهمة وراء ادراج وتعريف الكتب الأخرى للمؤلف في ختام هذا الكتاب، لأن القارئ الذي يقرأ هذا الكتاب ـ الذي نامل أن يعجبه ـ سيشاهد وجود كتب أخرى عديدة تحمل الخواص والمميزات نفسها الموجودة في هذا الكتاب، ويكون على علم بوجود منابع ثرة ومصادر غنية من الكتب التي يستطيع الاستفادة منها في المواضيع الإيمانية والسياسية.

- لن ترى في هذه الكتب ما تراه في بعض الكتب الأخرى من قناعات شخصية للمؤلف، ولا ترى شروحا وإيضاحات مستندة إلى مصادر مشبوهة، ولا أي نقص أو قصور في أسلوب الأدب والتوقير الواجب اتخاذه تجاه المفاهيم والمواضيع المقدسة، ولا ما يجر القارئ إلى الحيرة والتردد أو إلى اليأس والقنوط.

المحتويات

الداروينية والفلسفة المادية المنبعان الاصليان للإرهاب

يعتقد معظم الناس أن تشارلز داروين Charles Darwin هو أول من اقترح نظرية التطور، وأن هذه النظرية ترتكز إلى أدلة وملاحظات وتجارب علمية. ومع ذلك، فمثلما أن داروين ليس مؤسس النظرية، فإن النظرية أيضا لا تقوم على أي سند علمي. ذلك أنها تقوم على تطويع الطبيعة للفلسفة المادية القديمة. وعلى الرغم من أن النظرية لا تدعمها أي اكتشافات علمية، فإنها تلقى تأييدا أعمى باسم الفلسفة المادية.

وقد تسبب هذا التعصب في حدوث كوارث شتى. ذلك أنه بالإضافة إلى انتشار الداروينية والفلسفة المادية التي تدعمها، فقد تغيرت الإجابة على سؤال: "ما هو الإنسان؟". فالناس الذين كانوا يجيبون: "البشر هم خلق الله ويجب عليهم أن يعيشوا وفقا للمبادئ الأخلاقية الجميلة التي علمهم إياها" بدأوا يعتقدون الآن أن "الإنسان قد أتى إلى حيز الوجود بمحض الصدفة، وأنه عبارة عن حيوان تطور بفعل الصراع من أجل البقاء". هناك ثمن باهظ يجب دفعه مقابل هذه الخدعة الخطيرة. ذلك أن الأيديولوجيات العنيفة - مثل العنصرية، والفاشية، والشيوعية، ومذاهب عالمية همجية كثيرة غيرها تقوم على النزاع - قد استمدت جميعها القوة من هذه الخدعة.

وتدرس هذه المقالة هذه الكارثة التي ألحقها داروين بالعالم وتكشف صلتها بالإرهاب، الذي يُعد إحدى أهم المشكلات العالمية في عصرنا هذا.

الأكذوبة الداروينية: "الحياة نزاع"

لقد انطلق داروين في نظريته من مقدمة منطقية أساسية هي: "يعتمد تطور الكائنات الحية على الصراع من أجل البقاء. ويفوز القوي في الصراع، في حين يُحكم على الضعيف بالهزيمة والنسيان".

ووفقا لداروين، يوجد صراع قاسٍ من أجل البقاء ونزاع أبدي في الطبيعة. ويتغلب القوي دائما على الضعيف، وهذا ما يؤدي إلى حدوث التطور. وقد ضمَّن داروين رأيه هذا في العنوان الفرعي الذي أطلقه على كتابه أصل الأنواع، "أصل الأنواع بواسطة الانتقاء الطبيعي أو

الحفاظ على الأجناس المفضلة في الصراع من أجل الحياة The Origin of Species, "The" Origin of Species by Means of Natural Selection or the Preservation of Favoured Races in the Struggle for Life".

وعلاوة على ذلك، فقد زعم داروين أن "الصراع من أجل البقاء" ينطبق أيضا على الأجناس البشرية. ووفقا لهذا الزعم الخيالي، انتصرت "الأجناس الموهوبة" في الصراع. وكانت الأجناس الموهوبة تتمثل، في رأي داروين، في الأوروبيين البيض؛ أما الأجناس الإفريقية أو الآسيوية فقد تخلفت عن الركب أثناء الصراع من أجل البقاء. وقد تمادى داروين في آرائه وألمح إلى أن هذه الأجناس سرعان ما ستخسر "الصراع من أجل البقاء" بأكمله، وبالتالي ستنقرض.

"في فترة ما في المستقبل، ليست بعيدة بمقياس القرون، يكاد يكون مؤكدا أن الأجناس المتحضرة من البشر ستتمكن من استئصال الأجناس الهمجية والحلول محلها في كل أنحاء العالم. وفي نفس الوقت، ستكون القردة الشبيهة بالإنسان قد استؤصلت بلا شك. وستكون الهوة الفاصلة بين الإنسان وأقرب الكائنات إليه أكثر اتساعا، وفي النتيجة لا يبقى هناك إلا الأعراق الأكثر تمدنا حتى من الأعراق الأوروبية... ثم قردة من أنواع البابون التي هي أوطأ من الزنوج ومن سكان استراليا الأصليين"[1]

وتفسر عالمة الأنثروبولوجيا الهندية لاليتا فيديارثي Lalita Vidyarthi **كيف قامت نظرية التطور لداروين بفرض العنصرية على العلوم الاجتماعية:**

"لقد لاقت نظريته (نظرية داروين) الخاصة بالبقاء للأصلح ترحيبا حارا من قبل علماء العلوم الاجتماعية في ذلك العصر، الذين اعتقدوا أن البشر قد حققوا مستويات متنوعة من التطور وصلت إلى أوجها في حضارة الرجل الأبيض. وبحلول النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أصبحت العنصرية حقيقة مقبولة لدى الأغلبية العظمى من علماء الغرب.[2]

مصدر إلهام داروين: نظرية مالثوس الخاصة بالقسوة

لقد تمثل مصدر إلهام داروين في هذا الموضوع في كتاب الاقتصادي البريطاني توماس مالثوس Thomas Malthus **الذي يحمل عنوان: مقال حول مبدأ السكان** An Essay on the Principle of Population. **حيث قدَّر مالثوس أن سكان العالم – إذ تُركوا وشأنهم – قد زادوا زيادة سريعة. وقد رأى أن المؤثرات الأساسية التي سيطرت على عدد السكان هي الكوارث**

مثل الحروب، والمجاعات، والأمراض. وباختصار، ووفقا لهذا الزعم الوحشي، كان لا بد أن يموت بعض الناس كي يعيش البعض الآخر. وأصبح البقاء يعنى "الحرب الدائمة".

وفي القرن التاسع عشر، لاقت آراء مالثوس قبولا واسعا. وأيد مثقفو الطبقة العليا من الأوروبيين، على وجه الخصوص، هذه الأفكار القاسية. وفي مقالة "الأجندة العلمية السرية للنازيين"، ورد الوصف التالي للأهمية التي أعطتها أوروبا في القرن التاسع عشر لآراء مالثوس حول السكان:

في النصف الأول من القرن التاسع عشر، اجتمع أعضاء الطبقات الحاكمة من جميع أنحاء أوروبا، لمناقشة "المشكلة السكانية" المكتشفة حديثا، ولإيجاد سبل لتنفيذ أفكار مالثوس، وذلك بزيادة معدل الوفيات بين الفقراء: "بدلا من توصية الفقراء بالنظافة، يجب أن نشجعهم على العادات المناقضة. لذا، يجب علينا أن نضيق الشوارع في بلداننا، ونحشر مزيدا من الناس في المنازل، ونشجع على عودة الطاعون. وفي الريف، يجب أن نبني قرانا قرب البرك الراكدة، ونشجع على وجه الخصوص استيطان المستنقعات غير الصحية،" وهكذا دواليك.[3]

ونتيجة لهذه السياسة القاسية، سوف يتم التخلص من الضعفاء ومن أولئك الذين يخسرون الصراع من أجل البقاء، وفي المحصلة سوف تتوازن الزيادة السريعة في عدد السكان. وقد تم تنفيذ سياسة "اضطهاد الفقراء" تلك فعليا في بريطانيا خلال القرن التاسع عشر، وذلك بعد وضع نظام صناعي تم بموجبه إجبار الأطفال في سن الثامنة والتاسعة على العمل ست ساعات في اليوم بمناجم الفحم، مما أدى إلى موت الآلاف منهم نتيجة لظروف العمل الرهيبة. لقد فرض "الصراع من أجل البقاء"، الذي طالب به مالثوس في نظريته، على ملايين البريطانيين أن يعيشوا حياة مليئة بالمعاناة.

ونظرا لتأثره بهذه الأفكار، طبق داروين فكرة الصراع هذه على الطبيعة بأكملها، ورأى أن القوي والأصلح يخرج منتصرا من حرب البقاء تلك. وفضلا عن ذلك، ادعى أن ما يسمَّى صراع البقاء كان أحد قوانين الطبيعة المبررة والثابتة. ومن ناحية أخرى، دعا الناس إلى نبذ معتقداتهم الدينية من خلال إنكار الخلق، ومن ثم فقد استهدف جميع القيم الأخلاقية التي يمكن أن تشكل عائقا أمام قسوة "الصراع من أجل البقاء".

لقد دفعت البشرية في القرن العشرين ثمنا باهظا نتيجة لانتشار هذه الأفكار الزائفة التي دفعت الأفراد إلى القسوة والوحشية.

ما أفضى إليه "قانون الغاب": الفاشية

مثلما غذت الداروينية العنصرية في القرن التاسع عشر، فقد شكلت أساسا لأيدلوجية تطورت وأغرقت العالم في بحر من الدماء في القرن العشرين وهي: النازية.

ويمكن أن نلاحظ تأثيرا داروينيا قويا في الأيديولوجيات النازية. إذ إن الدارس لهذه النظرية، التي شكلها أدولف هتلر وألفريد روزنبرج Adolf Hitler and Alfred Rosenberg**، سوف يصادف أفكارا مثل "الانتقاء الطبيعي"، و"التزاوج المختار"، و"الصراع من أجل البقاء بين الأجناس"، وهي الأفكار التي تتكرر عشرات المرات في كتاب أصل الأنواع. وعندما أطلق هتلر على كتابه اسم** Mein Kampf **(كفاحي)، استوحى أفكاره من فكرة الصراع الدارويني من أجل البقاء ومن مبدأ النصر للأصلح. وقد تحدث على وجه الخصوص عن الصراع بين الأجناس:**

سوف يصل التاريخ إلى أوجه في إمبراطورية ألفية جديدة تتسم بعظمة لا مثيل لها، وتستند إلى تسلسل جديد للأجناس تقرره الطبيعة ذاتها". (4)

وفي الاجتماع الحاشد لحزب نيورمبيرج Nuremberg **عام** 1933**، أعلن هتلر أن "الجنس الأعلى يُخضع لنفسه الجنس الأدنى ... وهو حق نراه في الطبيعة ويمكن اعتباره الحق الأوحد القابل للإدراك".**

إن تأثر النازيين بالداروينية حقيقة يقبلها تقريبا معظم المؤرخين المتمرسين في هذا المجال. إذ يصف المؤرخ هيكمان Hickman **تأثير الداروينية على هتلر على النحو الآتي:**

لقد كان (هتلر) مؤمنا راسخا بالتطور ومبشرا به. وأيا كانت عقده النفسية الأعمق والأعوص، فإن من المؤكد أن (فكرة الصراع كانت مهمة بالنسبة له لأن) ... كتابه، Mein Kampf **(كفاحي)، يبين بوضوح عددا من الأفكار التطورية، وخاصة تلك التي تؤكد على الصراع، والبقاء للأصلح، وإبادة الضعفاء لإنتاج مجتمع أفضل.** (5)

لقد تسبب هتلر، الذي ظهر بهذه الأفكار، في جر العالم إلى عنف لم يشهد له مثيلا من قبل. فقد تعرضت العديد من الجماعات العرقية والسياسية، وخاصة اليهود، إلى قسوة رهيبة في معسكرات الاعتقال النازية. ودفع 55 **مليون شخص حياتهم ثمنا للحرب العالمية الثانية، التي بدأت بالغزو النازي. إن الفكرة الداروينية القائلة "بالصراع من أجل البقاء" هي المسئولة عن أكبر مأساة في تاريخ العالم.**

التحالف الدامي: الداروينية والشيوعية

في حين يحتل الفاشيون الجناح الأيمن من الداروينية الاجتماعية، يشغل الشيوعيون الجناح الأيسر. ولطالما كان الشيوعيون من بين أشرس المدافعين عن نظرية داروين.

ويعود تاريخ هذه العلاقة بين الداروينية والشيوعية إلى مؤسسَيْ هذين "المذهبين". فقد قرأ ماركس Marx **وإنجلز** Engels**، مؤسِّسا الشيوعية، كتاب أصل الأنواع لداروين بمجرد صدوره، وانبهرا بالأسلوب "المادي الجدلي" الذي اتبعه. وقد أوضحت المراسلات التي جرت بين ماركس وإنجلز اتفاقهما في الرأي على أن نظرية داروين "تحتوي على أساس للشيوعية في التاريخ الطبيعي". وفي كتابه المنطق الجدلي للطبيعة** The Dialectics of Nature**، الذي كتبه تحت تأثير داروين، أغدق إنجلز المدح على داروين، وحاول أن يقدم إسهامه في النظرية في الفصل الذي يحمل عنوان: "الدور الذي لعبه العمال في التحول من القرد إلى الإنسان"** The Part' Played by Labour in the Transition from Ape to Man'.

وقد اتفق الشيوعيون الروس الذي ساروا على خطى ماركس وإنجلز، من أمثال بليخانوف Plekhanov**، ولينين** Lenin**، وتروتسكي** Tretsky**، وستالين** Stalin**، في الرأي مع نظرية التطور لداروين. وكان بليخانوف، الذي يعد مؤسس الشيوعية الروسية، يعتبر الماركسية "تطبيقا للداروينية في العلوم الاجتماعية".**(6)

وقال تروتسكي: "يجسد اكتشاف داروين أعلى نصر للمنطق الجدلي في مجال المادة العضوية بأكمله".(7)

وقد لعب "التعليم الدارويني" دورا رئيسا في تشكيل الكوادر الشيوعية. فعلى سبيل المثال، لاحظ المؤرخون حقيقة أن ستالين كان متدينا في شبابه، ولكنه أصبح ملحدا بسبب كتب داروين.(8)

أما بالنسبة لماو Mao**، الذي أقام أسس الحكم الشيوعي في الصين وقتل ملايين الأشخاص، فقد أعلن صراحة أن "الاشتراكية الصينية تقوم على فكر داروين ونظرية التطور".**(9)

وقد خاض مؤرخ في جامعة هارفارد يدعى جيمس ريف باسي James Reeve Pusey **في تفاصيل أكبر حول تأثير الداروينية على ماو والشيوعية الصينية، وذلك في كتابه الأكاديمي الذي يحمل عنوان الصين وتشارلز داروين** .China and Charles Darwin(10)

وباختصار، هناك رابطة لا تنفصم بين نظرية النشوء والارتقاء والشيوعية. إذ تدعي النظرية أن الكائنات الحية هي نتاج المصادفات، وتقدم سندا علميا مزعوما للإلحاد. ولهذا السبب، توجد رابطة متينة بين الشيوعية، كأيدلوجية إلحادية، وبين الداروينية. وعلاوة على ذلك، تزعم نظرية النشوء والارتقاء أن التطور في الطبيعة ممكن بفضل النزاع (وفي عبارة أخرى "الصراع من أجل البقاء") وتؤيد فكرة "المنطق الجدلي" التي تمثل ركنا أساسيا من أركان الفكر الشيوعي.

وإذا اعتبرنا المفهوم الشيوعي "للنزاع الجدلي" - الذي قتل نحو 120 مليون شخص طوال القرن العشرين - "آلة للقتل"، يمكننا حينئذ أن نفهم بشكل أفضل حجم الكارثة التي ألحقتها الداروينية بكوكبنا.

الداروينية والإرهاب

كما رأينا حتى الآن، تعتبر الداروينية أساسا لعديد من أيديولوجيات العنف التي شكلت كوارث للجنس البشري في القرن العشرين. ومع ذلك، فقد حددت الداروينية، بالإضافة إلى هذه الأيديولوجيات، "فهما خلقيا" و"منهجا" يمكن أن يؤثر في عديد من الآراء المنتشرة في العالم. وتتمثل الفكرة الأساسية وراء الفهم والمنهج المذكورين في "محاربة أولئك الذين ليسوا منا".

ويمكننا أن نفسر ما سبق بالطريقة التالية: هناك معتقدات، وآراء، وفلسفات مختلفة في هذا العالم. ويمكن لمعتنقي هذه المعتقدات والآراء والفلسفات أن ينظروا إلى بعضهم البعض بإحدى طريقتين:

يمكنهم أن يحترموا وجود الآخرين الذين لا يفكرون مثلهم، ويحاولوا أن يقيموا حوارا معهم، باستخدام منهج منطق بشري.

يمكنهم أن يختاروا محاربة الآخرين، ويحاولوا أن يؤمِّنوا ميزة لأنفسهم من خلال تدميرهم، وفي عبارة أخرى، أن يتصرفوا مثل الحيوان.

إن الرعب الذي نطلق عليه الإرهاب ما هو إلا تعبير عن الطريقة الثانية.

وعندما ندرس الاختلاف بين هذين المنهجين، يمكننا أن ندرك أن فكرة "الإنسان بوصفه حيوانا محاربا" التي فرضتها الداروينية على الناس دون وعي منهم مؤثرة بشكل خاص. ومن

المحتمل ألا يكون الأفراد والجماعات التي تختار طريق النزاع قد سمعت عن الداروينية ومبادئ هذه الأيدلوجية على الإطلاق. ولكنها تتفق في نهاية الأمر مع رأي يستند أساسه الفلسفي إلى الداروينية. إن ما يدفع هؤلاء الأفراد وتلك الجماعات إلى الاعتقاد بصحة هذا الرأي هو الشعارات القائمة على الداروينية مثل: ″في هذا العالم، البقاء للأقوى″، و″السمكة الكبيرة تبتلع السمك الصغير″، و″الحرب قوة″، و″الإنسان يتقدم بشن الحرب″. استبعد الداروينية، وكل ما سيتبقى لديك هو شعارات فارغة.

وفي الواقع، إذا استبعدنا الداروينية، لن تتبقى أية فلسفة ″للنزاع″. ذلك أن الديانات السماوية الثلاث التي يؤمن بها معظم الناس في العالم، الإسلام، والمسيحية، واليهودية تعارض العنف. وترغب الديانات الثلاث جميعها في نشر السلام والتآلف في العالم، وتعارض قتل الأبرياء وتعريضهم للقسوة والتعذيب. وتنتهك فكرتا النزاع والعنف المبادئ الأخلاقية التي وضعها الله سبحانه وتعالى للإنسان، وهما فكرتان غير طبيعيتين وغير مرغوبتين. ومع ذلك، تنظر الداروينية إلى النزاع والعنف وتصورهما على أنهما فكرتان طبيعيتان، ومبررتان، وصحيحتان يجب أن تبقَيا.

ولهذا السبب، إذا ارتكب بعض الناس أعمالا إرهابية باسم مفاهيم ورموز الإسلام، والمسيحية، واليهودية يمكنك أن تتأكد من أن هؤلاء الناس ليسوا بمسلمين، أو مسيحيين، أو يهود. بل هم في الواقع داروينيون اجتماعيون. فهم يختبئون تحت عباءة الدين، ولكنهم ليسوا مؤمنين حقيقيين. وحتى إذا ادعوا أنهم يخدمون الدين، فهم في الواقع أعداء للدين وللمتدينين. ذلك أنهم يرتكبون هذه الجرائم البشعة التي ينهى عنها الدين ، ويشوهون بهذه الطريقة صورة الدين في عيون الناس.

ولهذا السبب، يتضح أن جذور الإرهاب الذي يعذب كوكبنا لا تكمن في أي من الديانات السماوية، وإنما تكمن في الإلحاد، الذي يتم التعبير عنه في عصرنا هذا من خلال: ″الداروينية″ و″المادية″.

الإسلام ليس مصدر الإرهاب، بل هو حله

إن بعض الناس الذين يقولون إنهم يتصرفون باسم الدين قد يسيئون فهم دينهم أو يمارسونه ممارسة خاطئة. ولهذا السبب، يصبح من الخطأ تكوين أية فكرة عن هذا الدين من خلال نشاطات هؤلاء الناس. وتتمثل أفضل طريقة لفهم الإسلام في مصدره المقدس.

ويتمثل المصدر المقدس للإسلام في القرآن الكريم؛ كما أن نموذج المبادئ الأخلاقية الوارد في القرآن – الإسلام – مختلف تماما عن الصورة التي تكونت عنه في أذهان بعض الغربيين. إذ يرتكز القرآن على مفاهيم الأخلاق، والحب، والشفقة، والرحمة، والتواضع، والتضحية بالنفس، والتسامح، والسلام، كما أن المسلم الذي يعيش حقًّا وفقا لهذه التعاليم الأخلاقية يتميز بدرجة عالية من التهذيب، ورجاحة العقل، والتسامح، والثقة، واللطف. لذا، فهو يمد من حوله بالحب، والاحترام، والسلام، والإحساس ببهجة الحياة.

الإسلام دين السلام والخير

تعني كلمة الإسلام بالعربية "السلام". فقد جاء الإسلام لكي يقدم للبشرية حياة مليئة بالسلام والخير تظهر فيها رحمة الله وعطفه الأبدي على هذا العالم. إذ يدعو الله كل الناس إلى قبول التعاليم الأخلاقية للقرآن بوصفها نموذجا للرحمة، والشفقة، والتسامح، والسلام الذي يمكن أن يلاقيه المرء في هذا العالم. وقد أنزل الله هذا الأمر في الآية 208 من سورة البقرة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ.﴾

وكما نرى في هذه الآية، فلن يتمكن الناس من أن ينعَموا بالخير إلا بقبول الإسلام والعيش وفقا للتعاليم الأخلاقية الواردة في القرآن الكريم.

الله يبغض الأذى

لقد أمر الله سبحانه وتعالى الإنسان أن يتجنب الشر؛ فقد نهى عن الكفر، والفسوق، والعصيان، والوحشية، والعدوانية، والقتل، وإراقة الدماء. ومن ثم، فإن أولئك الذي يعصون أمر الله يتبعون خطوات الشيطان، كما قال سبحانه وتعالى في الآية المذكورة أعلاه، وقد اتخذوا موقفا أعلن الله بوضوح أنه موقف محرَّم. ومن بين الآيات العديدة المتصلة بهذا الموضوع، لن نسوق هنا سوى آيتين:

﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ من بَعْد ميثَاقه وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ.﴾ (سورة الرعد: 25).

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ.﴾ (سورة القصص: 77).

وكما نرى هنا، فقد نهى الله عن شتى أنواع الأفعال المؤذية بما في ذلك الإرهاب والعنف، وأدان الدين الإسلامي أولئك الذي يرتكبون مثل هذه الأفعال. فالمسلم يضيف الجمال إلى العالم ويجعله أفضل.

الإسلام يدافع عن التسامح وحرية التعبير

الإسلام دين يرعى حرية الحياة والفكر. فقد نهى عن التوتر والنزاع بين الناس، والافتراء، والأخذ بالشبهات دون تثبت، بل حتى عن التفكير في شخص ما بأفكار سيئة.

ولم ينهَ الإسلام عن الإرهاب والعنف فحسب، بل نهى كذلك عن فرض أية فكرة على إنسان آخر.

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.﴾ (سورة البقرة: 256).

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ. لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ.﴾ (سورة الغاشية: 21-22).

إن إجبار أي شخص على اعتناق دين أو ممارسته هو أمر ضد روح الإسلام وجوهره لأن من الضروري أن يكون الإيمان مقبولا بإرادة وضمير حر. وبالطبع، يجوز للمسلمين أن يحثوا بعضهم البعض على المحافظة على التعاليم الأخلاقية التي علمهم إياها القرآن، ولكنهم لا يلجئون إلى الإجبار أبدًا. وعلى أية حال، فمن غير الممكن أن يُستحث الفرد على ممارسة الدين بتقديم ميزة دنيوية له.

دعونا نتخيل نموذجا معاكسا تماما للمجتمع، مثلا، عالَمًا يتم فيه إجبار الناس على ممارسة الدين بقوة القانون. من الواضح أن المجتمع الذي يقوم على مثل هذا النموذج يتناقض تماما مع الإسلام لأن الإيمان والعبادة ليس لهما أية قيمة إلا إذا كانا موجهين لله سبحانه وتعالى. فلو أن هناك نظاما يجبر الناس على الإيمان والعبادة، لاعتنق الناس الدين بدافع

الخوف من النظام. ولكن المقبول من وجهة نظر الدين هو وجود بيئة يُسمح فيها بحرية الضمير، ويُمارس فيها الدين لنيل رضا الله.

لقد حرَّم الله قتل الأبرياء

حسبما ورد في القرآن الكريم، فإن إحدى أعظم الخطايا هي قتل إنسان دون خطأ ارتكبه.

﴿..... مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ.﴾ (سورة المائدة: 32)

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا.﴾ (سورة الفرقان: 68).

وكما نرى في الآيتين السابقتين، فقد توعد الله أولئك الذين يقتلون البشر الأبرياء دون ذنب بعذاب شديد. وقد بيّن الله أن قتل شخص واحد خطيئة تعادل في شدتها قتل الناس أجمعين. ومن ثم، فإن أي شخص يحترم حدود الله لن يؤذي حتى شخصا واحدا، ناهيك عن قتل آلاف الناس الأبرياء. ويجب التنويه هنا إلى أن الذين يعتقدون أنهم سيفلتون من العدل والقصاص في هذا العالم لن يستطيعوا أبدا الهرب من تقديم تفسير لتصرفاتهم أمام الله في اليوم الآخر. وهكذا، فإن أولئك المؤمنين الذين يعرفون أنهم سيقدمون تفسيرا لأعمالهم أمام الله بعد الموت سيتوخون قدرا كبيرا من الحذر لاحترام حدود الله التي وضعها.

الله يأمر المؤمنين بالشفقة والرحمة

لقد ورد في هذه الآية تفسير لمبادئ المسلم الأخلاقية:

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ. أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ.﴾ (سورة البلد: 17-18).

وكما يتضح لنا في هاتين الآيتين، يتمثل أحد أهم التعاليم الأخلاقية التي أنزلها الله على عباده حتى يحصلوا على الخلاص والرحمة وينالوا الجنة، في قوله تعالى "تواصوا بالمرحمة".

إن الإسلام كما هو موصوف في القرآن الكريم هو دين عصري، ومستنير، ومتطور.

فالمسلم قبل كل شيء شخص مسالم؛ فهو شخص متسامح يتحلى بروح ديمقراطية، ومثقف، ومستنير، وصادق، وحسن الاطلاع على الفنون والعلوم، ومتحضر.

إن المسلم الذي ينشأ على التعاليم الأخلاقية الرفيعة الواردة في القرآن الكريم؛ يقترب من الجميع بالحب الذي يتوقعه منه الإسلام، ويظهر الاحترام لكل فكرة ويقدر الفن والجماليات. إنه يتحلى بالرضا عند مواجهة أي حدث، مما يقلل من التوتر ويعيد التفاهم. ولا شك في أن المجتمعات المكونة من مثل هؤلاء الأفراد، ستتسم بحضارة أكثر تقدما؛ ومبادئ أخلاقية أسمى؛ وبمزيد من البهجة، والسعادة، والعدل، والأمان، والخير، والنعم التي تفوق ما هو موجود في أكثر الأمم معاصرةً في عالمنا اليوم.

لقد أمر الله بالتسامح والعفو

تعبر الآية ١٩٩ من سورة الأعراف، التي تقول "خذ العفو"، عن مفهوم العفو والتسامح الذي يمثل أحد المبادئ الأساسية للدين الإسلامي.

فعندما ننظر إلى التاريخ الإسلامي، يمكننا أن نرى بوضوح كيف رسخ المسلمون هذا المبدأ المهم من التعاليم الأخلاقية القرآنية في حياتهم الاجتماعية. ففي كل مرحلة من مراحل تقدمهم، قضى المسلمون على الممارسات المحرمة وأنشأوا بيئة حرة ومتسامحة. أما بالنسبة للدين واللغة والثقافة، فقد أتاحوا لأناس متعارضين مع بعضهم البعض تماما أن يعيشوا تحت سقف واحد في جو من الحرية والسلام، مما أعطى لرعاياهم ميزات المعرفة، والثراء، والمركز الاجتماعي الرفيع. وبنفس الطريقة، فإن أحد أهم الأسباب التي أتاحت للإمبراطورية العثمانية الكبيرة والمترامية الأطراف أن تحافظ على بقائها لعدة قرون يتمثل في طريقة الحياة السائدة التي كان يوجهها التسامح والفهم اللذان جاء بهما الإسلام. ولعدة قرون، كان المسلمون معروفين بتسامحهم وتراحمهم، وفي كل عصر من العصور كانوا أعدل الناس وأرحمهم. وقد مارست كل المجموعات العرقية داخل هذا المجتمع متعدد القوميات دياناتها التي اعتنقتها على مر السنين، وتمتعت بكل فرصة للحياة في ظل ثقافاتها، وممارسة عباداتها بطريقتها الخاصة.

وفي الواقع، فإن النمط الخاص لتسامح المسلمين، إذا تمت ممارسته على النحو الذي أمر الله به في القرآن الكريم، فإنه سيكفي وحده ليعم السلام والخير العالم بأكمله. ويشير القرآن الكريم إلى هذا النمط الخاص من التسامح في الآية التالية:

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ.﴾ (سورة فصلت: 34).

الخاتمة

يتضح لنا من كل ما سبق أن التعاليم الأخلاقية التي يقدمها الإسلام للبشرية هي تعاليم تعود على العالم بالسلام والسعادة والعدل. ومن ثم، يتضح لنا أن الهمجية التي تحدث في عالمنا اليوم باسم "الإرهاب الإسلامي" بعيدة كل البعد عن التعاليم الأخلاقية للقرآن الكريم؛ فهي نتاج لأناس جهلة، متعصبين، مجرمين لا يمتون للدين بصلة. ويتمثل الحل الذي يجب أن يطبق على هؤلاء الأفراد وتلك الجماعات التي تحاول أن ترتكب الأفعال الهمجية تحت ستار الإسلام، في إرشاد الناس إلى تعاليم الإسلام الأخلاقية الحقيقية.

وفي عبارة أخرى، لا يؤيد الدين الإسلامي وتعاليم القرآن الأخلاقية الإرهاب والإرهابيين، بل هما العلاج الذي يمكن من خلاله إنقاذ العالم من كارثة الإرهاب.

ملاحظات

1. تشارلز داروين، سلالة الإنسان The Descent of Man، الطبعة الثانية، نيويورك، شركة إيه إل بيرت A L. Burt Co.، 1874, صفحة رقم 178.

2. لاليتا براساد فيديارثي، العنصرية، والعلم، والعلم الزائف Racism, Science, and Pseudo-Science، اليونسكو، فرنسا، فيندوم Vendôme، 1983, صفحة رقم 54.

3. ثيودور دي. هول Theodore D. Hall، الخلفية العلمية لبرنامج "التطهير العرقي" النازي The Scientific Background of the Nazi "Race Purification" Program، http://www.trufax.org/avoid/nazi.html

4. إل. إتش. جان L. H. Gann، "أدولف هتلر، الشمولي الكامل" "Adolf Hitler, The Complete Totalitarian"، استعراض اشتركت فيه كليات متعددة Intercollegiate Review، خريف 1985, صفحة رقم 24؛ ورد في كتاب هنري إم. موريس Henry M. Morris، بعنوان الحرب الطويلة ضد الله The Long War Against God، دار نشر بيكر للكتاب Baker Book House، 1989, صفحة رقم 78.

5. هيكمان آر.، الخلق الحيوي Biocreation، دار نشر العلوم Science Press، وورثنجتون، أوهايو، الصفحات من 51-52, 1983؛ جيري بيرجمان Jerry Bergman، "الداروينية والمحرقة النازية للأجناس"، مجلة الخلق من العدم الفنية Creation Ex Nihilo Technical Journal 13 (2): (الصفحات من 101-111, 1999.

6. روبرت إم. يونج Robert M. Young، التطور الدارويني والتاريخ البشري Darwinian Evolution and Human History، دراسات تاريخية حول العلم والمعتقدات، 1980.

7. آلان وودز وتيد جرانت Alan Woods and Ted Grant، المنطق المتمرد؛ الماركسية والعلوم المعاصرة Reason in Revolt; Marxism and Modern Science، لندن، 1993.

8. ألكس دو جونغ Alex de Jonge، ستالين وتشكيل الاتحاد السوفييتي Stalin and the Shaping of the Soviet Union، أبناء ويليام كولنز والشركة المحدودة William Collins Sons & Limited Co. ، جلاسكو، 1987, صفحة رقم 22.

9. كي. ميهنرت K. Mehnert، Kampf um Mao's Erbe، Deutsche Verlags-Anstalt، 1977.

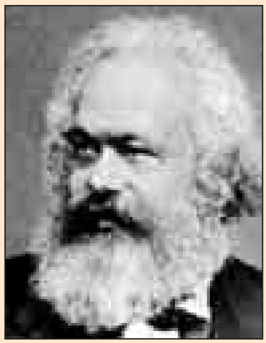
10. جيمس ريف باسي، الصين وتشارلز داروين China and Charles Darwin، كيمبردج Cambridge، ماساشوستس، 1983.

مقدمة: لماذا نظرية التطور؟

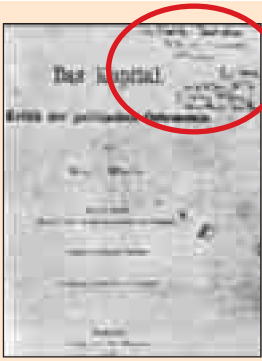
إن نظرية التطور أو الداروينية لا تمثل، في رأي بعض الناس، سوى دلالات علمية، ليس لها – حسبما يبدو لهم – أي تأثير مباشر في حياتهم اليومية. وهذا بالطبع سوء فهم شائع. ذلك أن نظرية التطور تتجاوز إلى حد بعيد مجرد كَوْنِها موضوعًا في إطار العلوم البيولوجية، لتشكِّل أساس فلسفة خادعة كان لها تأثير بالغ على عدد كبير من الناس، وهي الفلسفة المادية.

إن الفلسفة المادية – التي لا تقبل وجود شيء سوى المادة، وتفترض مقدما أن الإنسان ″كومة من المادة″ – تؤكد أنه ليس سوى حيوان، يشكل ″الصراع″ القاعدة الوحيدة لوجوده. وبالرغم من الترويج لها بوصفها نظرية حديثة تقوم على العلم، فإن المادية في الحقيقة ليست سوى عقيدة قديمة تفتقر إلى أي أساس علمي. فهذه العقيدة – التي تم اعتناقها في اليونان القديمة – قد أعاد اكتشافها الفلاسفة الملحدون في القرن الثامن عشر. وبعد ذلك تم غرسها في القرن التاسع عشر في فروع علمية عديدة بواسطة مفكرين مثل كارل ماركس Karl Marx، وتشارلز داروين Charles Darwin، وسيجموند فرويد Sigmund Freud. وبعبارة أخرى، فقد تم تشويه العلم ليفسح المجال للفلسفة المادية.

لقد كان القرنان الماضيان ميدان صراع دموي للفلسفة المادية: فالإيديولوجيات القائمة على المادية (أو الإيديولوجيات المتنافسة المناهضة للمادية، ولكنها تشاركها عقائدها الأساسية) قد أتت بالعنف والحروب والفوضى الدائمة إلى العالم. إن الشيوعية – المسؤولة عن موت 120 مليون إنسان – هي النتيجة المباشرة للفلسفة المادية. وبالرغم من تظاهر الفاشية بأنها بديل للرؤية المادية للعالم، فقد قبلت المفهوم المادي الأساسي المتمثل فى التقدم من خلال الصراع،



أكد كارل ماركس على أن نظرية داروين قد شكلت أساساً جوهرياً للمادية والشيوعية، وأبدى تعاطفه مع داروين حين أهدى إليه كتابه «رأس المال»، الذي يعد أعظم أعماله. وقد كتب ماركس على الطبعة الألمانية من الكتاب: «من محب مخلص إلى داروين».



وكانت بمثابة الشرارة الأولى لأنظمة ظالمة، ومذابح، وحروب عالمية، وإبادة جماعية.

وبالإضافة إلى هاتين الإيديولوجيتين الدمويتين، فإن الأخلاق الفردية والاجتماعية قد فسدت كذلك بسبب المادية.

إن الرسالة الخادعة للمادية - باختزالها الإنسان إلى حيوان وُجد بالصدفة، ولا يحمل أي قدر من المسؤولية تجاه أي كائن - قد هدمت الركائز الخلُقية مثل الحب، والرحمة، والتضحية بالنفس، والتواضع، والأمانة، والعدل. وإذ ضُلل الناس بشعار الماديين "الحياة صراع"، فقد وصل بهم الأمر إلى ألا يروا في حياتهم أكثر من صدام للمصالح، أفضى بدوره إلى حياة يحكمها قانون الغابة.

ويمكننا أن نجد آثار هذه الفلسفة - التي تفسر إلى حد كبير الكوارث التي صنعها الإنسان في القرنين الماضيين - في كل إيديولوجية تنظر إلى الاختلافات بين البشر بوصفها "سببا للصراع"، بما في ذلك الإرهابيون في عصرنا الحاضر الذين يدعون نصرة الدين، إلا أنهم يرتكبون أحدى أعظم الكبائر بقتلهم الأبرياء.

وتأتي نظرية التطور، أو الداروينية، في هذه المرحلة لتكمل الصورة. إنها تقدم الخرافة المتمثلة في أن المادية فكرة علمية. وهذا ما يفسر أن كارل ماركس، مؤسس الشيوعية والمادية الجدلية، قد كتب أن الداروينية هي "الأساس في التاريخ الطبيعي" في رؤيته للعالم.[1]

ومع ذلك، فإن ذلك الأساس فاسد. ذلك أن الاكتشافات العلمية الحديثة تكشف يوما بعد يوم أن الاعتقاد الشائع الذي يربط الداروينية بالعلم هو اعتقاد زائف. إن الأدلة العلمية تدحض الداروينية تماما، وتكشف أن أصل وجودنا ليس التطور، وإنما هو الخلق. لقد خلق الله الكون، وكل الكائنات الحية، والإنسان.

وقد كُتب هذا الكتاب ليجعل هذه الحقيقة معروفة للناس. ومنذ نشره للمرة الأولى في تركيا، ثم في بلدان عديدة أخرى، قرأ ملايين الناس هذا الكتاب وقدَّروه. وبالإضافة إلى اللغة التركية، فقد طُبع هذا الكتاب بالإنجليزية، والإيطالية، والأسبانية، والروسية، والبوسنية، والعربية، والماليزية، والإندونيسية. (نص هذا الكتاب متاح مجانا بجميع هذه اللغات في الموقع التالي على شبكة الإنترنت: www.evolutiondeceit.com).

لقد اعترف بتأثير كتاب "خدعة التطور" "The Evolution Deceit" **قادة معارضي هذا**

الرأي. وكان ″هارون يحيى″ موضوعا لمقال نشر في مجلة "New Scientist" **(العالِم الجديد)، بعنوان ″إحراق داروين″** ."Burning Darwin" **لقد سجلت هذه المجلة الرائدة المعروفة، المؤيدة للداروينية، في عددها بتاريخ 22 أبريل 2000، أن ″هارون يحيى″ هو ″بطل عالمي″، معربةً عن قلقها من أن كتبه ″قد انتشرت في كل مكان في العالم الإسلامي″.**

أما مجلة "Science" **(العلم)، وهي المجلة الرائدة في المجتمع العلمي بوجه عام، فقد أكدت تأثير ورفعة مستوى كتب ″هارون يحيى″. وقد سجل مقال مجلة** "Science" **بعنوان ″نظرية الخلق تتأصل حيث تلتقي أوروبا وآسيا″** "Creationism Takes Root Where Europe, Asia Meet"**، في عددها الصادر بتاريخ 18 مايو 2001، أنه في تركيا ″أصبحت كتب رفيعة المستوى مثل** The Evolution Deceit **(خدعة التطور) و**The Dark Face of Darwinism **(الوجه المظلم للداروينية) ... أكثر تأثيرا من كتب التطور في مناطق معينة من البلاد″. ثم يستمر كاتب المقال ليقيِّم كتب ″هارون يحيى″، التي أنشأت – على حد قوله – ″إحدى أقوى الحركات العالمية المعارضة للتطور خارج أمريكا الشمالية″.**

وعلى الرغم من أن مثل هذه المجلات المؤيدة للتطور تسجل تأثير كتاب ″خدعة التطور″، فإنها لا تقدم أي إجابات علمية للرد على البراهين الواردة به. والسبب – بالطبع – أن هذا ببساطة غير ممكن. إن نظرية التطور في مأزق لا تستطيع الفكاك منه بحال من الأحوال، وهذه حقيقة سوف تكتشفها وأنت تقرأ الفصول التالية من الكتاب. وسوف يساعدك هذا الكتاب في إدراك أن الداروينية ليست نظرية علمية، وإنما هي عقيدة زائفة تتمسح بالعلم، يتم تأييدها – بالرغم من الأدلة التي تثبت خطأها وتدحضها كليةً – باسم الفلسفة المادية.

إننا نأمل أن يستمر كتاب ″خدعة التطور″، لوقت طويل، في إسهامه فيدحض العقيدة المادية–الداروينية، التي ضللت الإنسانية منذ القرن التاسع عشر. وسوف يذكِّر هذا الكتاب الناس بالحقائق الحاسمة في حياتهم، مثل كيف جئنا إلى الوجود وما هي واجباتنا تجاه خالقنا.

لكي نتحرر من الأحكام والأفكار المسبقة

إن معظم الناس يقبلون كل شيء يسمعونه من العلماء بوصفه صحيحاً تماماً، ولا يكاد يخطر ببالهم أن العلماء قد تكون لهم أيضا أهواء فلسفية أو أيديولوجية شتَّى. والحقيقة أن العلماء التطوُّريين يفرضون أهواءَهم الذاتية وآراءَهم الفلسفية على العامة تحت ستار العلم. وعلى سبيل المثال، فبالرغم من أنهم يعلمون أن الأحداث العشوائية لا تُنتِج إلا الشذوذ والفوضى، فإنهم لا يزالون يدَّعون أن النظام والتخطيط والتصميم البديع الذي نراه في كلٍّ من الكون والكائنات الحية قد نشأ بطريق الصدفة.

وعلى سبيل المثال، فإن مِثل هذا العالِم البيولوجي يدرك -بسهولة- أن في جُزيء البروتين (الذي هو وحدة بناء الحَياة) انسجاماً لا يُسبَر غورُهُ وأنه لا يوجد أي احتمال لأن يكون ذلك قد جاء بطريق الصدفة، ومع ذلك، فإنه يزعم أن هذا البروتين قد وُجد في ظل ظروف بدائية للأرض بطريق الصدفة منذ بلايين السنين. وهو لا يتوقف عند هذا الحد؛ إنه يزعم أيضاً، دون تردد، أن الأمر لم يقتصر على بروتين واحد، وإنما ملايين البروتينات قد تكونت بطريق الصدفة، ثم تجمعت على نحو لا يصدَّق لتكوِّن الخلية الحية الأولى. وبعد ذلك كله، فإنه يدافع عن رأيه بعناد أعمى. إن هذا الشخص هو عالِم تطوُّري!

ولكن لو أن هذا العالِم نفسه كان يمشي في طريق من الطرق فوجد ثلاثةً من أحجار البناء مصفوفةً الواحد فوق الآخر، فإنه لن يفترض أبداً أن هذه الأحجار قد وُجدت معاً بطريق الصدفة ثم تسلقت ليستقر الواحد منها فوق الآخر أيضاً بطريق الصدفة. وفي الواقع، فإنه سيعتبر أيَّ شخص يُصِرُّ على ذلك الزعم مجنوناً.

كيف -إذن- يمكن للأشخاص الذين ينجحون في فهم وتفسير الأحداث العادية على نحو معقول أن يتبنَّوا مثل هذا الموقف غير المعقول عندما يتعلق الأمر بالتفكير في وجودهم هم أنفسهم؟ إن من غير الممكن أن نزعم أن هذا الموقف يُتبنَّى باسم العلم؛ فالعلم يقتضي أخذ كِلا البديلَين في الاعتبار كلما وُجِد بديلان محتمَلان بنفس القدر فيما يتصل بقضية معينة. وإذا كان احتمالُ أحد البديلَين أقلَّ كثيراً من الآخر (كأَنْ يكونَ واحداً في المئة على سبيل المثال) فإن الشيء المنطقي والعلمي يكون إذن هو اختيار البديل الآخر، الذي يقدَّر احتماله بتسعة وتسعين في المئة، واعتباره البديلَ الصحيح.

ودعونا نواصل حديثنا آخذين في اعتبارنا هذا الأساس العلمي. إن ثمة رأيين يمكن طرحهما فيما يتصل بالكيفية التي أتت بها الكائنات الحية إلى الوجود على الأرض: الرأي الأول هو أن كل الكائنات الحية قد خلقها الله في صورتها المعقدة الحالية. والرأي الثاني هو أن الحياة قد تكوَّنت بطريق مصادفات عشوائية غير مقصودة، وهذا هو الرأي الذي تزعمه نظرية التطوُّر.

إننا عندما نتأمل المعطيات العلمية (ولتكُن معطيات علم البيولوجيا الجزيئية على سبيل المثال) فإنه يكون بوسعنا أن نرى أنه لا توجد أي فرصة أبداً لاحتمال أن تكون خلية حية واحدة (أو حتى واحد من ملايين البروتينات الموجودة في هذه الخلية) قد وُجدت بطريق الصدفة كما يزعم التطوُّريون. وكما سنبين في الفصول الآتية، فإن حسابات الاحتمالات أيضاً تؤكد هذه الحقيقة مراراً وتَكراراً. ومن ثم فإن رأي التطوُّريين بشأن ظهور الكائنات الحية لا يوجَد أي احتمال أبداً لكونه صحيحاً.

إن هذا يعني أن نسبة احتمال كون الرأي الأول صحيحاً هي مئة في المئة، أي أن الحياة قد أُوجِدت على نحو مقصود. وبتعبير آخر، فإنها قد خُلقت. إن كل الكائنات الحية قد جاءت إلى الوجود بتخطيط خالق تعالت قدرته وحكمته وعلمه. إن هذه الحقيقة ليست مجرد مسألة إيمانية؛ بل إنها النتيجة الطبيعية التي تقود المرءَ إليها الحكمةُ والمنطقُ والعلم.

والحالة هذه، فإنه ينبغي على عالِمنا التطوُّري أن يتراجع عن زعمه ويتمسك بحقيقة جلية ومبرهَنة على حد سواء، وهو إذا فعل غير ذلك فإنه يُثبت أنه -في الواقع- شخص يضحّي بالعلم من أجل فلسفته وأيديولوجيته وعقيدته أكثر من كَونه عالِماً حقيقياً.

إن الغضب والعناد ونزعات التعصب لدَى عالِمنا تزيد أكثر وأكثر في كل مرة يواجه فيها الحقيقة. إن موقفه يمكن تفسيره بكلمة واحدة: الاعتقاد، إلا أنه اعتقاد خرافي أعمى، ذلك أنه لا يمكن أن يوجَد تفسير آخر لتجاهل المرء لكل الحقائق أو لتكريسه حياته بأكملها لخدمة سيناريو لامعقول نَسَجَهُ في خياله.

التعصب الأعمى للفلسفة المادية

إن الاعتقاد الذي تحدثنا عنه هو الفلسفة المادية التي ترى أن المادة موجودة منذ الأزل ولا تقبل وجود شيء إلا المادة ولا شيء غيرها. ونظرية التطور هي ما يزعم أنه الأساس العلمي لهذه الفلسفة المادية، ولذلك فإنهم يدافعون عنها دفاعاً أعمى لتدعيم هذه الفلسفة. أما حين

يدحض العلم ادعاءات التطور ويبطلها (وهذا ما توصل إليه العلم في أواخر القرن العشرين) فإنهم يسعون جاهدين إلى تحريف الحقائق العلمية بحيث تبدو وكأنها تؤيد التطور، وذلك من أجل الإبقاء على حياة الفلسفة المادية.

إن سطوراً قليلة كتبها أحد أشهر علماء الأحياء المدافعين عن نظرية التطور في تركيا لَهِي نموذج جيد لمشاهدة ما يؤدي إليه التعصب الأعمى من تخبط وفساد في التفكير والتقدير. يقول عالم الأحياء هذا عن موضوع إمكانية التشكل العشوائي (عن طريق الصدفة) لمادة سيتوكروم–سي (Cytochrome-C) التي هي واحدة من أهم الإنزيمات اللازمة للحياة:

إن احتمال تكوين سلسلة واحدة من (سيتوكروم - سي) قليل جداً يكاد يكون صفراً... أو إن تكوين هذه السلسلة المعقدة حدث من قِبَل قوى فوق تصورنا ولا نستطيع تعريفها. ولكن قبول الاحتمال الأخير لا يناسب الأهداف العلمية؛ إذن علينا فحص الاحتمال الأول وتمحيصه والاقتصار عليه.[2]

إن هذا العالِم يرى أن قبوله احتمالاً ضعيفاً يصل إلى حد الصفر هو أمر أكثر تجسيداً لطبيعة العلم من قبول مسألة الخلق، بينما القواعد العلمية تقضي -كما تناولنا آنفاً- أنه إذا كان يمكن تفسير موضوع ما عن طريق احتمالين وكان احتمال أحدهما صفراً، فالصواب هو الاحتمال الثاني. ومع ذلك، فإن الفكر المادي المتعنت يرفض من الأساس قبول وجود قوة خالقة فوق المادة، وهذا الرفض يؤدي بهذا العالِم (وبكثيرين غيره من أنصار التطور المؤمنين بالمادية والمتعصبين لها) يؤدي بهم جميعاً، مع الأسف، إلى تقبل أمور لا يقبلها العقل ولا الفطرة السليمة.

وبالآتي يصبح الأشخاص الذين يؤمنون بهؤلاء العلماء ويثقون بهم عُمياً ومستعبَدين لنفس السحر المادي، ويتبنون ذات النفسية غير العقلانية عند قراءة كتب هؤلاء العلماء ومقالاتهم.

وقد كانت وجهة النظر المادية المتعنتة هذه هي السبب في إلحاد عديد من الأسماء المشهورة في المجتمع العلمي، ولا يتردد أولئك الذين يخلِّصون أنفسهم من وطأة عبودية هذا السحر ويفكرون بعقل متفتح في التسليم بوجود خالق. وقد وصف عالم الكيمياء الحيوية الأمريكي، الدكتور مايكل بيهي (وهو أحد هذه الأسماء المشهورة التي تؤيد نظرية التصميم الذكي (intelligent design) التي لاقت مؤخراً قبولاً كبيراً في الأوساط العلمية)، وصف العلماء الذين يقاومون الإيمان بالتصميم أو الخلق في الكائنات الحية بقوله:

على مدى الأربعين سنة الماضية اكتشف علم الكيمياء الحيوية الحديث أسرار الخلية، وقد استلزم ذلك من عشرات الآلاف من الأشخاص تكريس أفضل سنوات حياتهم في العمل الممل داخل المختبرات... وقد تجسدت نتيجة كل هذه الجهود المتراكمة لدراسة الخلية (ودراسة الحياة عند المستوى الجزيئي) في صرخة عالية، واضحة، حادة تقول: التصميم المبدع!. وكانت هذه النتيجة من الوضوح والأهمية بمكان بحيث كان من المفترض أن تصنَّف ضمن أعظم الإنجازات في تاريخ العلم. ولكن -بدلاً من ذلك- أحاط صمت غريب ينم عن الارتباك بالتعقيد الصارخ للخلية. ولكن لماذا لا يتوق المجتمع العلمي إلى قبول هذا الاكتشاف المذهِل؟ لماذا يتم تكميم مفهوم التصميم المبدع بقفازات فكرية؟ تكمن الورطة هنا في أن قبول فكرة التصميم الذكي المبدع، يؤدي حتماً إلى التسليم بوجود الله [3].



ريتشارد دوكنز، منشغل بنشر نظرية التطور.

ويجسد ما سبق الوضع المؤسف لعلماء التطور الملحدين الذين تراهم في المجلات وتشاهدهم على شاشات التلفزيون، والذين قد تكون من قارئي كتبهم. ذلك أن جميع البحوث العلمية التي قام بها هؤلاء العلماء تبرهن لهم أن هناك خالقاً، بَيد أن هؤلاء العلماء أصبحوا عُمياً ومتبلدي الإحساس بسبب التعليم المادي المتعنت الذي تشربوه لدرجة جعلتهم يصرون على إنكارهم.

ويتحول الأشخاص الذين يُهملون باستمرار الدلائل والبراهين الواضحة على وجود الخالق إلى أشخاص متبلدي الإحساس تماماً. ونتيجة لانغماسهم في الثقة بالنفس المبنية على الجهل بسبب تبلد إحساسهم، فقد ينتهي بهم الأمر إلى تأييد إحدى السخافات على أنها حقيقة. ومن أفضل الأمثلة على ذلك عالم التطور الشهير ريتشارد داوكينز الذي يطلب من الناس ألا يتسرعوا بالاستنتاج بأنهم قد شاهدوا معجزة حتى لو شاهدوا تمثالاً يلوِّح لهم بيده؛ فحسب رأيه: ربما تصادف أن كل الذرات في ذراع التمثال قد تحركت في نفس الاتجاه في آن واحد... إنه احتمال ضعيف بالطبع، ولكنه ممكن [4]!

لقد وُجدت نفسية الكافر على مر التاريخ، وقد وُصفت في القرآن الكريم كما يأتي:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ.﴾ (سورة الأنعام 111).

وكما توضح هذه الآية، فإن التفكير المتعنت لعلماء التطور ليس طريقة أصلية في التفكير، ولا حتى طريقة مميِّزة لهم. وفي الواقع، لا تعد الأفكار التي ينادي بها عالم التطور من التفكير العلمي الحديث في شيء، إنما هي مجرد جهل تم الحفاظ عليه منذ عصر أكثر المجتمعات الوثنية بدائية.

وقد تم تعريف ذات النفسية في آية قرآنية أخرى:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنْ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ. لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ.﴾ (سورة الحجر 14-15).

التلقين الجماعي لنظرية التطور

كما تشير الآيات المستشهَد بها أعلاه، فإن أحد الأسباب التي تمنع الناس من رؤية حقائق وجودهم يتجسد في نوع من السحر يقوم بإعاقة تفكيرهم. ويشكل هذا السحر عينُه الأساس الذي يقوم عليه القبول العالمي واسع النطاق لنظرية التطور. ونعني بالسحر هنا التهيئة المكتسبة عن طريق التلقين؛ إذ يتم إخضاع الناس لعملية تلقين مكثفة حول صحة نظرية التطور لدرجة تجعلهم لا يدركون حتى التشويه الموجود فيها.

ويوجِد هذا التلقين أثراً سلبياً على العقل يُعطِّل مَلَكة التمييز. وفي نهاية الأمر يبدأ العقل، الذي يخضع للتلقين المستمر في تصور الحقائق ليس كما هي بل كما تم تلقينه إياها. ويمكن مراقبة هذه الظاهرة في أمثلة أخرى. فمثلاً: إذا تم تنويم أحد الأشخاص تنويماً مغنطيسياً وتم تلقينه أن السرير الذي يستلقي عليه هو عبارة عن سيارة، فإنه بعد جلسة التنويم المغنطيسي يتصور أن السرير سيارة، كما أنه يعتقد أن هذه المسألة منطقية وعقلانية جداً لأنه يراها فعلياً بهذه الطريقة وليس لديه أدنى شك في أنه على صواب. وتعتبر مثل هذه الأمثلة (التي تؤكد على فعالية آلية التلقين وقوتها) حقائق علمية تم إثباتها عن طريق عدد لا حصر له من التجارب التي تم تناقلها في الأدبيات العلمية، والتي تمثل الزاد اليومي لعلم النفس وكتب علم النفس.

إن نظرية التطور والنظرة العالمية المادية التي تعتمد عليها تُفرض على العامة باستخدام أساليب التلقين هذه؛ إذ يتعذر على الأشخاص (الذين يتعرضون بشكل مستمر لتلقين نظرية التطور في وسائل الإعلام والمراجع الأكاديمية والمنابر العلمية) أن يدركوا أن قبولهم لهذه النظرية يتعارض -في الواقع- مع أبسط المبادئ الأساسية للعقل. ويقع العلماء أيضاً تحت وطأة

ذات النوع من التلقين. ذلك أن الأسماء الشابة التي ترتقي سلم مستقبلها العلمي يزداد تبنيها للنظرة العالمية المادية أكثر فأكثر مع مرور الوقت. وبسبب افتتان عديد من علماء التطور بهذا السحر، يظل هؤلاء العلماء يبحثون عن تأكيد علمي لادعاءات التطور غير العقلانية التي عفى عليها الزمن منذ ظهورها في القرن التاسع عشر، والتي دحضتها جميع الأدلة العلمية منذ فترة طويلة.

وهناك آليات إضافية أيضاً تجبر العلماء على أن يؤمنوا بالتطور ويعتنقوا الأفكار المادية. ففي البلدان الغربية، يجب على العالم أن يتقيد ببعض المعايير حتى يتسنى له الترقي، أو الحصول على الاعتراف الأكاديمي، أو نشر مقالاته في المجلات العلمية. ويأتي القبول الصريح لنظرية التطور على رأس هذه المعايير. ويقوم هذا النظام بدفع هؤلاء العلماء إلى حد قضاء كل حياتهم ومستقبلهم العلمي من أجل اعتقاد متعنت.

ويعد هذا الوضع تجسيداً للحقيقة التي لا تزال تشكل أساساً للتأكيد القائل بأن: نظرية التطور ما زالت تلقى قبولاً في دنيا العلوم. ومن ثم، فإن السبب في إبقاء نظرية التطور في قيد الحياة لا يرجع إلى قيمتها العلمية بل لكونها التزاماً أيديولوجياً. ولا يوجد سوى قلة قليلة من العلماء المُلمين بهذه الحقيقة يمكنهم المجازفة بالإشارة إلى أن هذه النظرية لا تقوم على أي أساس حقيقي من الصحة!

وفي بقية فصول هذا الكتاب، سنستعرض النتائج العلمية الحديثة التي أدت إلى انهيار الاعتقاد بنظرية التطور كما سنعرض الأدلة الواضحة على وجود الله. وسيشهد القارئ بأن نظرية التطور هي -في الواقع- خدعة؛ خدعة تتناقض مع العلم في كل خطوة يخطوها ولكنها أُيدت بغية إسدال الستار على حقيقة الخلق. وما نرجوه من القارئ هو أن يستيقظ من السحر الذي يعمي عقول الناس ويعطل قدرتهم على التمييز، وأن يُعمل فكره بجدية فيما سنرويه في هذا الكتاب.

وإذا استطاع القارئ أن يخلص نفسه من هذا السحر ويفكر بوضوح، وحرية، ودون أي تحيز، فسرعان ما سيكتشف الحقيقة الواضحة وضوح الشمس. وتتمثل هذه الحقيقة الحتمية، التي أثبتها العلم الحديث أيضاً في كل جوانبه، في أن الحياة لم توجد عن طريق الصدفة بل جاءت نتيجة لعملية الخلق. ويمكن للمرء أن يرى حقيقة الخلق بسهولة عندما يتأمل في كيفية خلقه من قطرة ماء، أو في الكمال الموجود في كل كائن حي آخر.

نبذة تاريخية عن نظرية التطور

ترجع جذور الفكر القائم على التطور إلى العصور القديمة؛ وذلك بوصفه اعتقاداً متعنتاً يحاول التنكر لحقيقة الخلق. فقد دافع معظم الفلاسفة الوثنيين في اليونان القديمة عن فكرة التطور. وعندما نلقي نظرة على تاريخ الفلسفة، نجد أن فكرة النشوء والارتقاء تشكل العمود الفقري لكثير من الفلسفات الوثنية.

ومع ذلك فإن الإيمان بالله، لا هذه الفلسفة الوثنية القديمة، هو الذي لعب دوراً محفزاً في ميلاد العلم الحديث وتطوره. فقد آمن بوجود الله غالبية الأشخاص الذين احتلوا مركزاً ريادد ياً في العلم الحديث؛ وبينما كانوا يدرسون العلم، سعوا إلى اكتشاف الكون الذي خلقه الله بغية وضع تصور لنواميسه وتفاصيل خلقه. وهناك مِن علماء الفلك (من أمثال ليوناردو دافنشي، وكوبرنيكس، وكبلر، وغاليأتيو، ورائد علم المتحجرات القديمة كوفيير، ورائد علم النبات والحيوان ليناوس، وإسحاق نيوتن الذي يشار إليه بوصفه أعظم عالم عاش على الأرض مَن قاموا بدراسة العلم وهم مؤمنون ليس فقط بوجود الله ولكن أيضا بأن الكون كله وُجد نتيجة لخلقه سبحانه وتعالى له[5].كما كان ألبرت آينشتاين أيضاً -الذي يعتبر أعظم عباقرة عصرنا- من ضمن العلماء المؤمنين بالله، وهو صاحب المقولة الآتية:لا أستطيع أن أتصور عالِماً حقيقياً دون إيمان عميق. ويمكن التعبير عن هذا الوضع من خلال الصورة الآتية: العلم بلا دين علم أعرج[6].

وقد قال أحد مؤسسي الفيزياء الحديثة، الفيزيائي الألماني ماكس بلانك، إنه ينبغي على كل من يدرس العلم بجدية أن يقرأ العبارة الآتية المكتوبة على باب معبد العلم: تَحَلَّ بالإيمان، فالإيمان من الصفات الأساسية المميزة للعالِم [7].

وتعتبر نظرية التطور نتاجاً للفلسفة المادية التي ظهرت على السطح عند إحياء الفلسفات المادية القديمة وانتشرت على نطاق واسع في القرن التاسع عشر. وكما أشرنا من قبل، فإن المادد ية تسعى لتفسير الطبيعة من خلال العوامل المادية البحتة. وبما أنها تنكر -منذ البداية- حقيقة الخلق، فإنها تؤكد على أن كل شيء، سواء كان كائناً حياً أو جماداً، قد ظهر ليس نتيجة لعملية

الخلق بل عن طريق الصدفة التي اكتسبت بعد ذلك طابعاً نظامياً. ولكن العقل البشري مركب على أن يفهم وجود إرادة منظمة كلما رأى نظاماً. وقد أفرزت الفلسفة المادية، المخالفة لأبسط السمات الأساسية في العقل البشري، نظرية التطور (أو النشوء والارتقاء) في أواسط القرن التاسع عشر.

خيال دارْون

إن مَن قدم نظريّة التطور على النحو الذي يدافع به العلماء عنها اليوم هو عالِم طبيعيات إنكليزي هاوٍ يدعى تشارلز روبرت دارْونْ.

ولم يتلقًّ دارون أي تعليم رسمي في علم الأحياء، ولكنه اهتم بموضوع الطبيعة والكائنات الحية اهتمام الهواة، وحفزه هذا الاهتمام على الانضمام إلى رحلة استكشافية على متن سفينة تسمى إتش. إم. إس بيغل (H.. M. S. Beagle) **أبحرت من إنكلترا عام 1832 وجابت مناطق مختلفة من العالم لمدة خمس سنوات. وانبهر الشاب دارون انبهاراً كبيراً بمختلف أنواع الأحياء، وخاصة بنوع معين من العصافير (الحساسين) التي شاهدها في جزر غالاباغوس** (Galapagos)**، واعتقد دارون أن التنوع في مناقير العصافير يُعزَى إلى تكيفها مع موطنها. وبوجود هذه الفكرة في عقله، افترض أن أصل الحياة والأنواع يكمن في فكرة التكيف مع البيئة. ووفقا لدارون، فإن الله لم يخلق مختلف أنواع الأحياء بشكل منفصل، بل إنها انحدرت من سلف مشترك واختلفت عن بعضها البعض نتيجة للظروف الطبيعية.**

ولم تستند فرضية دارون على أي اكتشاف أو تجربة علمية؛ ولكنه حوَّلها -مع مرور الوقت- إلى نظرية حظيت بأهمية لا تستحقها، من خلال الدعم والتشجيع الذي تلقاه من أشهر علماء الأحياء الماديين في عصره. وتتمثل فكرة النظرية في أن الأفراد التي تكيفت مع موطنها على النحو الأفضل نقلت صفاتها إلى الأجيال الآتية، وقد تراكمت هذه الصفات المفيدة مع الوقت وحولت الفرد إلى نوع يختلف اختلافاً كاملاً عن أسلافه. (ولم يكن أصل هذه الصفات المفيدة معروفاً في ذلك الوقت). ووفقا لدارون، يمثل الإنسان أكثر نتاج متطور لهذه الآلية.

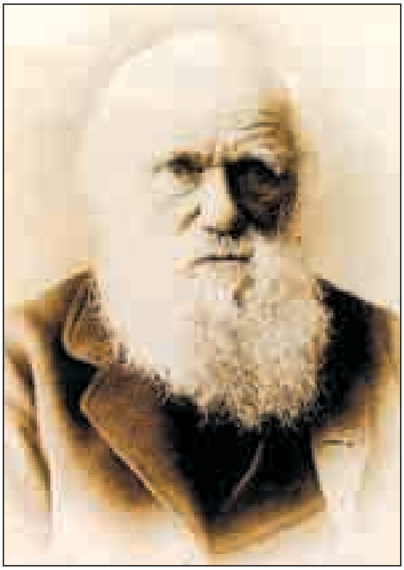
وأطلق دارون على هذه العملية اسم: التطور بالانتقاء الطبيعي. وظن أنه اكتشف أصل الأنواع ؛ أي أن أصل نوع ما هو نوع آخر. ونشر هذه الآراء في كتابه الذي يحمل عنوان أصل

الأنواع بواسطة الانتقاء الطبيعي عام 1859.

ولكن داروين كان يدرك جيداً أن نظريته تعاني من مشكلات كثيرة، وقد اعترف بهذه المشكلات في كتابه في فصل بعنوان صعوبات النظرية. ويأتي على رأس هذه الصعوبات سجل المتحجرات، وتعقيد أعضاء الأحياء الذي لا يمكن أن يفسَّر عن طريق الصدفة (مثل العين) وغرائز الأحياء. وكان داروين يأمل في التغلب على هذه الصعوبات بواسطة الاكتشافات الجديدة؛ ولكن ذلك لم يوقفه عن تقديم عدد من التفسيرات غير الملائمة أبداً لبعض هذه الصعوبات. وقد علق الفيزيائي الأمريكي ليبسون على صعوبات داروين بقوله:

عندما قرأت كتاب أصل الأنواع لمست أن داروين نفسه كان أقل ثقة مما كان الناس يصوّرونه في أغلب الأحيان؛ إذ يوضح الفصل الذي يحمل عنوان صعوبات النظرية -مثلاً- قدراً لا يستهان به من عدم الثقة بالنفس. وبوصفي فيزيائيّاً، فقد أثارتني بشكل خاص تعليقاته حول كيفية ظهور العين (8).

وعندما كان داروين يضع نظريته، انبهر بعديد من علماء الأحياء السابقين المؤمنين بالتطور، وعلى الأخص عالم الأحياء الفرنسي لامارك (9). وحسب رأي لامارك، فقد نقلت الكائنات الحية السمات التي اكتسبتها أثناء حياتها من جيل إلى جيل، وبهذه الصورة تطورت هذه الكائنات. فعلى سبيل المثال: تطورت الزرافات من حيوانات شبيهة بالبقر الوحشي عن طريق إطالة أعناقها شيئاً فشيئاً من جيل إلى جيل عندما كانت تحاول الوصول إلى الأغصان الأعلى فالأعلى لأكل أوراقها، وبالآتي استخدم داروين فرضية توريث السمات المكتسبة التي اقترحها لامارك بوصفها العامل الذي جعل الأحياء تتطور.



تشارلز داروين

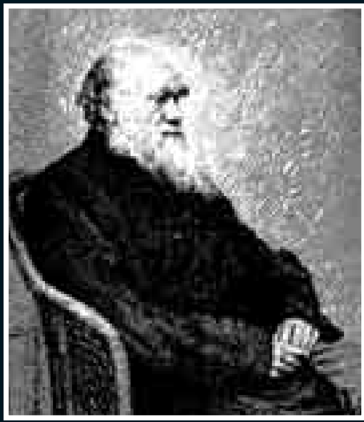
ولكن كلاً من لامارك وداروين كان مخطئاً، ذلك أنه لم يكن ممكناً في تلك الفترة دراسة الحياة إلا بواسطة تكنولوجيا بدائية جداً وبمستوى غير ملائم أبداً. ولم تكن هناك مجالات علمية مثل علم الوراثة وعلم الكيمياء الحيوية، بل لم يكن اسمها حتى موجوداً؛ ومن ثَم كان لا بد أن تعتمد نظريتهما اعتماداً كاملاً على قوة مخيلتيهما.

عنصرية داروين

يتمثل أحد أهم جوانب شخصية دارون وأقلها شيوعاً بين الناس في عنصريته؛ ذلك أنه كان يعتبر الأوربيين البيض أكثر تقدماً من الأجناس البشرية الأخرى. وبينما افترض داروين أن الإنسان تطور من مخلوقات شبيهة بالقرد، خمّن أن بعض الأجناس تطورت أكثر من البعض الآخر وأن هذا النوع الأخير ما زال يحمل ملامح القردة. وفي كتابه سلالة الإنسان (الذي نشره بعد كتابه الذي يحمل عنوان أصل الأنواع) علق بجرأة على الفروق العظمى بين البشر من الأجناس المتباينة [1]. وفي هذا الكتاب ساوى داروين بين السود وسكان أستراليا الأصليين وبين الغوريلا، ثم استنتج أن هؤلاء سيتم القضاء عليهم بواسطة الأجناس المتحضرة بمرور الوقت. وقد قال داروين:

في فترة مستقبلية ليست بعيدة بمقياس القرون، يكاد يكون مؤكداً أن الأجناس المتحضرة من البشر ستتمكن من استئصال الأجناس الهمجية والحلول محلها في كل أنحاء العالم. وفي نفس الوقت ستكون القردة الشبيهة بالإنسان قد استؤصلت بلا شك. [2]

ولكن أفكار داروين، عديمة المنطق، لم توضع في شكل نظرية فحسب، وإنما احتلت أيضا مكانة استطاعت بها أن توفر أهم مبرر علمي للعنصرية. وبافتراض أن الكائنات الحية تطورت في نضال من أجل





الحياة، فقد تم تكييف الداروينية حتى في مجال العلوم الاجتماعية وتحولت إلى مفهوم آخر يعرف بالداروينية الاجتماعية.

وتزعم الداروينية الاجتماعية بأن الأجناس البشرية الموجودة تحتل مواقع مختلفة من درجات السلم التطوري، بحيث احتل الجنس الأوربي أكثر الدرجات تقدماً على الإطلاق، وأن العديد من الأجناس الأخرى ما زال يحمل ملامح القردة.

---

1 Benjamin Farrington, What Darwin Really Said? London: Sphere Books, 1791 pp. 54-56
2 Charles Darwin, The Descent of Man, 2nd ed., New York: A.L. Burt Co., 1874 p. 178

وبينما كانت أصداء كتاب دارون مدوية، اكتشف عالم نبات نمساوي اسمه غريغور مندل قوانين الوراثة سنة 1865. وعلى الرغم من أن اكتشافات مندل لم يسمع بها الكثيرون حتى أواخر القرن، فإنها اكتسبت أهمية عظيمة في أوائل القرن العشرين الذي شهد ولادة علم الوراثة. وفي فترة لاحقة، اكتُشِف تركيب الجينات والكروموزومات. وفي الخمسينيات، أدى اكتشاف تركيب جزيء "DNA" (الذي يحتوي على المعلومات الوراثية) إلى إيقاع نظرية التطور في أزمة كبيرة. ويرجع ذلك إلى التعقيد المدهش للحياة وبطلان آليات التطور التي اقترحها دارون.

وكان حرياً بهذه التطورات أن تؤدي إلى إلقاء نظرية دارون في مزبلة التاريخ. ولكن هذا لم يحدث نظراً لإصرار دوائر معينة على تنقيح النظرية وتجديدها والارتفاع بها إلى منابر العلوم. ولن نفهم مغزى هذه الجهود إلا إذا أدركنا أن وراء النظرية أغراضاً أيديولوجية أكثر من كونها اهتمامات علمية.

المحاولات اليائسة للدارونية الجديدة

دخلت نظرية دارون في أزمة كبيرة بسبب اكتشاف قوانين الوراثة في الربع الأول من القرن العشرين. ومع ذلك، حاولت مجموعة من العلماء الذين أصروا على ولائهم لدارون أن تتوصل إلى حلول مناسبة لتلك الأزمة. والتقى هؤلاء العلماء في اجتماع نظمته الجمعية الجيولوجية الأمريكية سنة 1941, وبعد مشاورات طويلة نجح -في النهاية- علماء الوراثة (من أمثال ليديارد ستيبنس وثيودوسياس دوبزهانسكي) وعلماء الحيوان (من أمثال إرنست ماير وجوليان هاكسلي) وعلماء المتحجرات القديمة (من أمثال جورج غايلورد سمبسون وغلين جِبسِن) وعلماء الوراثة الرياضية (من أمثال رونالد فيشر وسيول رايت) في التوصل إلى اتفاق حول الطرق المناسبة لترقيع الدارونية.

وقد ركز هذا الفريق من العلماء على مسألة أصل التغيرات المفيدة التي من المفترض أنها قد تسببت في تطور الكائنات الحية (وهي مسألة لم يستطع دارون نفسه تفسيرها، لذلك حاول -ببساطة- أن يتجنبها معتمداً على لامارك). وبدأ الآن تفكير هؤلاء العلماء يدور حول الطفرات العشوائية، وقد أطلقوا على نظريتهم الجديدة اسم النظرية التركيبية الحديثة للتطور التركيبي (The Modern Synthetic Evolution Theory)، التي تم تكوينها بإضافة فكرة الطفرة إلى فرضية دارون الخاصة بالانتقاء الطبيعي. وبعد مرور وقت قصير، أُطلِق على هذه النظرية اسم

الداروينية الجديدة كما أُطلِق على الأشخاص الذين قدموها اسم الداروِنيين الجدد.

وأصبحت العقود الآتية لتلك الفترة بمثابة حقبة للمحاولات اليائسة الرامية إلى إثبات صحة الداروِنية الجديدة. وكان معروفاً من قبل أن الطفرات (أو المصادفات) التي حدثت في جينات الكائنات الحية كانت تلحق بها الضرر دائماً، لكن الداروِنيين الجدد حاولوا أن يقدموا برهاناً على وجود طفرة مفيدة من خلال القيام بآلاف التجارب على الطفرات... ولكن كل محاولاتهم باءت بالفشل الذريع!

كما حاولوا أيضاً إثبات أن الكائنات الحية الأولى قد نشأت عن طريق الصدفة وتحت ظروف أرضية بدائية وفقاً لفرضية النظرية، ولكن نفس الفشل صاحَبَ هذه التجارب أيضاً. وكان الفشل حليف كل تجربة تسعى إلى إثبات أن الحياة يمكن أن تنشأ بالصدفة، وأثبت حساب الاحتمالات أنه لا يمكن حتى لبروتين واحد (وهو الوحدة الأساسية للحياة) أن يتكون عن طريق الصدفة. أما بالنسبة للخلية (التي من المفترض أنها قد ظهرت عن طريق الصدفة تحت ظروف أرضية بدائية يتعذر التحكم فيها وفقاً لعلماء التطور) فإن من غير الممكن تركيبها حتى في أكثر المختبرات تطوراً في القرن العشرين.

وقد مُنيت نظرية الداروِنية الجديدة بالهزيمة من قِبَل سجل المتحجرات أيضاً؛ إذ لم يُعثر قط في أية بقعة من العالم على أي من الأشكال الانتقالية التي من المفترض أن تُظهر التطور التدريجي للكائنات الحية من الأنواع البدائية إلى الأنواع المتقدمة حسبما تزعم نظرية الداروِنيين الجدد. وفي نفس الوقت، كشف التشريح المقارن أن الأنواع التي يفترض أنها تطورت بعضها من بعض تتسم -في الواقع- بسمات تشريحية مختلفة تماماً وأنها من غير الممكن أبداً أن تكون أسلافاً أو خلفاء لبعضها البعض.

ولكن الداروِنية الجديدة لم تكن نظرية علمية أبداً، بل كانت مبدأ أيديولوجياً (إن لم تكن نوعاً من الديانة!)؛ ولهذا السبب ظل أنصار نظرية التطور يدافعون عنها على الرغم من كل الأدلة المناقضة لها. ومع ذلك، هناك شيء لم يستطيعوا الاتفاق عليه؛ ألا وهو: أي من النماذج المختلفة المقترحة لفهم التطور هو النموذج الصحيح. ويتمثل أحد أهم هذه النماذج في السيناريو الخيالي المعروف باسم التوازن المتقطع.

التطور على قفزات

إن معظم العلماء الذين يؤمنون بالتطور يقبلون نظرية الداروِنيين الجدد المتعلقة بالتطور

المستوى البدائي للعلوم في زمن داروん

عندما قدم دارون افتراضاته لم تكن فروع المعرفة (مثل علم الجينات والمكروبات والكيمياء الحيوية) موجودة، ولو أن اكتشافها تم قبل أن يقدّم دارون نظريته لأدرك -بسهولة- أن نظريته كانت غير علمية على الإطلاق، وعندئذ ما كان ليحاول الترويج لمثل هذه الادعاءات عديمة المعنى. ذلك أن المعلومات التي تحدد الأجناس موجودة في الجينات ويستحيل على الانتقاء الطبيعي أن يولّد أجناساً جديدة من خلال حدوث تغيرات في الجينات.

وبالمثل، كان مفهوم دنيا العلوم في تلك الأيام عن تركيب الخلية ووظيفتها سطحياً وغير ناضج. فلو سنحت الفرصة لدارون أن يشاهد الخلية باستخدام المجهر الإلكتروني لكان قد اطّلع على التعقيد الكبير والتركيب غير العادي للجزيئات العضوية للخلية، ولكان قد رأى بأم عينيه أنه لا يمكن لمثل هذا النظام المعقد أن يَنشأ نتيجةَ تغيرات طفيفة. ولو كان يعلم بوجود الرياضيات الحيوية لكان قد أدرك أنه من غير الممكن (ولو حتى لجزيء بروتين واحد، ناهيك عن خلية كاملة) أن ينشأ بمحض الصدفة.

ولم تصبح الدراسات التفصيلية عن الخلية ممكنة إلا بعد اكتشاف المجهر الإلكتروني. ففي زمن دارون، وباستخدام المجاهر البدائية التي نراها في الصورة، لم يكن ممكناً سوى مشاهدة السطح الخارجي للخلية.



كبير من الصعوبة بالنسبة لعلماء المتحجرات من أنصار التطور. ويرجع السبب في ذلك إلى أنه، حسب المخطط المتخيل للتطور، يأتي ترتيب الإنسان منتصب القائمة بعد القردة الجنوبية. وكما توحي كلمة إنسان، فإن الإنسان منتصب القامة هو صنف من أصناف البشر لديه هيكل عظمي مستقيم، وتبلغ سعة جمجمته ضعف سعة جمجمة القردة الجنوبية. ويعد التحول المباشر من القردة الجنوبية (التي هي عبارة عن قردة شبيهة بالشمبانزي) إلى الإنسان منتصب القامة الذي لا يختلف عن الإنسان العصري في هيكله العظمي، أمراً محالاً حتى بالنسبة لنظرية التطور. ومن هنا جاءت ضرورة وجود روابط؛ أي أشكال انتقالية. ومن هذه الضرورة، ظهرت فكرة الإنسان القادر على استخدام الأدوات .(Homo Habilis)

وفي الستينيات، قامت أسرة ليكي، المعروفة بأكملها بأنها صائدة للمتحجرات، بتقديم التصنيف الخاص بالإنسان القادر على استخدام الأدوات. ووفقاً لأسرة ليكي، فإن هذا النوع الجديد الذي صنفوه على أنه إنسان قادر على استخدام الأدوات يتميز بجمجمة ذات سعة أكبر نسبياً، وقدرة على المشي بقامة منتصبة واستخدام الأدوات الحجرية والخشبية. ومن ثم يمكن أن يكون هذا النوع سَلَفاً للإنسان.

غير أن المتحجرات الجديدة التي اكتُشفت من نفس النوع في أواخر الثمانينيات غيرت هذا الرأي تماماً. فقد صرح بعض الباحثين (أمثال برنارد وود و لورنغ بريس اللذين اعتمدا على هذه المتحجرات المكتشفة حديثاً) بأن الإنسان القادر على استخدام الأدوات، وهو ما يعنيه مصطلح Homo habilis، يجب أن يصنَّف تحت فئة القردة الجنوبية القادرة على استخدام الأدد وات، وهو ما يعنيه مصطلح Australopithecus habilis؛ لأن هناك صفات مشتركة كثيرة بين الإنسان القادر على استخدام الأدوات والقردة المسماة بالقردة الجنوبية. إذ يتسم هذا الإنسان - مثله مثل القردة الجنوبية- بأذرع طويلة، وأرجل قصيرة، وهيكل عظمي شبيه بالهيكل العظمي للقردة. كما أن أصابع يديه وأصابع قدميه معدة للتسلق، وتعتبر بنية فكه السفلي مشابهة جدا لتلك الخاصة بقردة اليوم، كما أن متوسط سعة جمجمته البالغ 600 سم3 يعد دليلاً على حقيقة كونه قرداً. وباختصار، يمكن القول بأن الإنسان القادر على استخدام الأدوات، الذي قدمه بعض دعاة التطور بوصفه نوعاً مختلفاً، هو في الواقع نوع من أنواع القردة مثله مثل كافة القردة الجنوبية الأخرى.

وقد أظهرت البحوث التي أجريت في السنوات الآتية فعلياً أن الإنسان القادر على

الإنسان القادر على استخدام الأدوات: قرد آخر منقرض



ادعى دعاة التطور لفترة طويلة أن المخلوقات التي أطلقوا عليها اسم Homo habilis (أي الإنسان القادر على استخدام الأدوات) تستطيع المشي بقامة منتصبة، وكانوا يظنون أنهم وجدوا حلقة تمتد من القرد إلى الإنسان. ومع ذلك، فالمتحجرة التي اكتشفها تيم وايت في عام 1986 وسمّاها OH 62 دحضت هذا الزعم. لقد أظهرت أجزاء هذه المتحجرة أن الإنسان القادر على استخدام الأدوات لديه ذراعان طويلتان ورجلان قصيرتان؛ تماماً مثل القردة المعاصرة. وهكذا، وضعت هذه المتحجرة نهاية للزعم بأن الإنسان القادر على استخدام الأدوات كان يمشي على قدمين منتصب القامة. وفي الحقيقة، لم يكن الإنسان القادر على استخدام الأدوات سوى نوع آخر من أنواع القردة.

إن المتحجرة OH 7 Homo habilis -الموضَّحة هنا- كانت هي المتحجرة التي عرَّفت على أفضل وجه سمات الفك السفلي لنوع الإنسان القادر على استخدام الأدوات. ويتسم الفك السفلي لهذه المتحجرة بأسنان قاطعة كبيرة، كما تتسم بأنياب صغيرة الحجم، ويتخذ الفك السفلي شكلاً مربعاً. وتجعل كل هذه الصفات هذا الفك يبدو مشابهاً جداً للفك الخاص بقردة اليوم. وبعبارة أخرى، فإن الفك السفلي للانسان القادر على استخدام الأدوات يؤكد -مرة أخرى- أن هذا الكائن هو قرد بالفعل.



استخدام الأدوات لا يختلف عن القردة الجنوبية في شئ. وقد بينت جمجمة المتحجرة OH 62 وهيكلها العظمي اللذان عثر عليهما تيم وايت أن هذا النوع يتصف بصغر سعة جمجمته وطول ذراعيه وقصر ساقيه، مما يمكنه من تسلق فروع الأشجار، مثله مثل قردة اليوم تماماً.

وقد دلت التحاليل التفصيأتية التي أجرتها عالمة الأنثروبولوجيا الأمريكية هولي سميث في سنة 1994 أن ما يسمى الإنسان القادر على استخدام الأدوات لم يكن إنساناً، بل كان قرداً. وفيما يتصل بالتحاليل التي أجرتها على أسنان القردة الجنوبية، والإنسان القادر على استخدام الأدوات، والإنسان منتصب القامة، والإنسان النيانتدرالي، قررت سميث ما يأتي:

إن التحاليل التي استندت إلى طبيعة وبنية تطور الأسنان أشارت إلى أن الأسترالوبيثاكينيس وهوموهابيلس ينتميان إلى نفس أنماط القرود الأفريقية، وأما تلك الخاصة بالإنسان منتصب القامة والإنسان النياندرتالي فقد أشارت إلى أنهما يملكان نفس البنية العائدة للإنسان المعاصر. (65)

وفي نفس السنة، توصل فرد سبور وبرنارد وود وفرانز زونفيلد (وجميعهم من اختصاصيي التشريح) إلى نفس النتيجة ولكن باستخدام طريقة مختلفة تماماً. وتعتمد هذه الطريقة على التحليل المقارن للقنوات شبه الدائرية الموجودة في الأذن الداخلية للإنسان والقرد والمسؤولة عن الحفاظ على التوازن. وقد اختلفت قنوات الإنسان الذي يمشي منتصب القامة اختلافاً كبيراً عن تلك الخاصة بالقرد الذي يمشي منحنياً إلى الأمام. وفضلاً عن ذلك، جاءت نتائج تحليل قنوات الأذن الداخلية لكل القردة الجنوبية، وكذلك عينات الإنسان القادر على استخدام الأدوات التي حللها كل من سبور وwood وزونفيلد، جاءت كلها مماثلة لقنوات القردة العصرية. أما فيما يتعلق بنتائج تحليل قنوات الأذن الداخلية للإنسان منتصب القامة، فقد أثبت التحليل أنها مماثلة لقنوات إنسان اليوم. (66)

وقد أفرز هذا الاستنتاج نتيجتين هامتين هما:

1- أن المتحجرات المشار إليها باسم الإنسان القادر على استخدام الأدوات لم تكن تنتمي في الواقع إلى طائفة الإنسان، بل كانت تنتمي إلى طائفة القردة الجنوبية.

2- أن الإنسان القادر على استخدام الأدوات والقردة الجنوبية كانا جميعاً من الكائنات الحية التي تتميز بمشية منحية، وبالآتي بهيكل عظمي مماثل لهيكل القردة وليست لها أية علاقة من أي نوع كان بالإنسان.

إنسان رودولف: الوجه الملصق خطأ

إن مصطلح إنسان رودولف (Homo Rudolfensis) **هو الاسم الذي أُطلق على بضعة أجزاء تخص متحجرة تم اكتشافها سنة 1972. وقد أطلق نفس الاسم على الطائفة التي من المفترض أن تمثلها هذه المتحجرة، وذلك بسبب العثور على أجزاء المتحجرة على مقربة من نهر رودولف في كينيا. ويقر معظم علماء المتحجرات بأن هذه المتحجرات لا تنتمي إلى نوع مميز، بل إن الكائن الحي المسمى بإنسان رودولف هو في الواقع إنسان قادر على استخدام الأدوات.**

وقد قام ريتشارد ليكي، الذي اكتشف المتحجرات، بتقديم الجمجمة (التي أطلق عليها اسم KNM-ER 1470 **وقال إن عمرها يبلغ ٨ , ٢ مليون سنة) على أنها أعظم اكتشاف في تاريخ الأنثروبولوجيا وعلى أن لها آثاراً كاسحة. ووفقاً لليكي، فإن هذا الكائن، الذي كانت سعة جمجمته صغيرة مثل القرد الجنوبي ومع ذلك كان وجهه مثل وجه الإنسان، هو الحلقة المفقودة بين القرد الجنوبي والإنسان. ولكن، بعد فترة قصيرة، اتضح أن وجه الجمجمة** KNM-ER 1470 **الشبيه بوجه الإنسان والذي كثيراً ما ظهر على أغلفة المجلات العلمية جاء نتيجة لصق معيب لأجزاء الجمجمة، الأمر الذي من الممكن أن يكون قد حدث عن عمد. وقد أوجز البروفسور تيم بروماج، الذي أجرى دراسات حول تشريح وجه الإنسان، هذه الحقيقة التي كشفها بمساعدة المحاكاة الحاسوبية سنة 1992، بقوله:**

عندما أُعيدَ بناء الجمجمة "KNM-ER 1470**" لأول مرة تم تركيب الوجه على الجمجمة في وضع يكاد يكون عمودياً وأشبه ما يكون بالوجوه المسطحة للإنسان العصري، ولكن الدراسات الأخيرة للعلاقات التشريحية أظهرت أن في الحياة الفعلية لا بد أن يبرز الوجه بشكل ملحوظ مكوِّناً ملامح تشبه ملامح القرد، بل تشبه بالأحرى وجوه القردة الجنوبية** (67)

وكتب في هذا الموضوع عالم المتحجرات التطوري كرونين ما يأتي:

(لقد لوحظ في وجه هذه الجمجمة- الذي تم بناؤه أي أعيد تركيبه بشكل تقريبي - صغر حجم القحف،وكبر الأنياب وغيرها من الصفات التي أشارت إلى أن المتحجرة رقم KNM-ER 1470 **تشارك القردة الجنوبية هذه الصفات البدائية. كما أن متحجرة** KNM-ER 1470 **تحمل - مثلها مثل النماذج الأخرى المبكرة للإنسان - صفاتا مشتركة مع القردة الجنوبية ذات البنية الصغيرة. ولا توجد هذه الصفات في النماذج الإنسانية المتأخرة اي في الإنسان المنتصب)**(68)

وقد توصل لورنج براس من جامعة ميشيجان إلى نفس الاستنتاج بعد التحاليل التي أجراها على تركيب فك الجمجمة KNM-ER 1470 وأضراسها، وقال إن كبر حجم الفك وسعة الجزء الذي تشغله الأضراس أوضح أن لهذه الجمجمة نفس وجه القرد الجنوبي وأسنانه بالضبط. (69)

أما البروفسور ألان والكر، عالم المتحجرات من جامعة جون هوبكنز، الذي قام بإجراء دراسات على هذه الجمجمة بنفس القدر الذي أجراه ليكي، فقد دافع قائلاً إن هذا الكائن الحي يجب ألا يصنف تحت فئة الأنواع البشرية مثل الإنسان القادر على استخدام الأدوات وإنسان رودولف، بل على العكس يجب أن يضم إلى الفئة الخاصة بأنواع القرد الجنوبي. (70)

وإيجازاً لما سبق: تُعتبر تصنيفات مثل تصنيفات الإنسان القادر على استخدام الأدوات أو إنسان رودولف، التي تم تقديمها بوصفها حلقات انتقالية بين القردة الجنوبية والإنسان منتصب القامة، ضرباً من ضروب الخيال. وكما أكد العديد من الباحثين اليوم، فإن هذه الكائنات الحية تعد أفراداً في سلسلة القرد الجنوبي؛ إذ أن كل خواصها التشريحية تكشف أن كلاً منها يمثل نوعاً من أنواع القردة.

وتلي هذه الكائنات، التي يُعتبر كل واحد منها نوعاً من أنواع القردة، المتحجرات البشرية.

الإنسان منتصب القامة وما بعده: البشر

وحسبما ورد في المخطط العجيب لدعاة التطور، ينقسم التطور الداخلي لأنواع الإنسان إلى الأقسام الآتية: أولاً، الإنسان منتصب القامة، ثم الإنسان العاقل القديم والإنسان النياندرتالي، يأتيه الإنسان الكرومانيوني (Cro-Magnon)، وأخيرا الإنسان العصري ومع ذلك، فإن كل هذه التصنيفات ما هي -في الواقع- سوى أجناس بشرية أصلية، ولا يزيد الاختلاف بينها عن الاختلاف بين شخص من الأسكيمو وشخص أسود أو بين غجري وأوروبي.

فلندرس أولاً الإنسان منتصب القامة، الذي يشار إليه بوصفه أكثر أنواع البشر بدائية. فكما توحي كلمة منتصب (erect)، فإن مصطلح Homo erectus يعني الإنسان الذي يمشي منتصب القامة. وقد اضطر دعاة التطور إلى تمييز هذا الإنسان عن سابقيه بإضافة صفة الانتصاب؛ ذلك أن كل المتحجرات المتاحة للإنسان منتصب القامة تتسم باستقامة الظهر





الإنسان منتصب القامة: جنس بشري قديم



تعني عبارة Homo erectus الإنسان منتصب القامة. وتنتمي جميع المتحجرات المتضمنة في هذا النوع إلى أنواع بشرية معينة. ونظراً لأن معظم متحجرات الإنسان منتصب القامة لا تجمع بينها صفة مشتركة، يكون من الصعب جداً أن يتم تعريف هؤلاء البشر وفقاً لجماجمهم، وهذا هو السبب الذي جعل باحثين مختلفين من دعاة التطور يضعون تصنيفات وتعيينات متنوعة. وتظهر أعلى الصفحة في الجهة اليمنى جمجمة وجدت في كوبي فورا بأفريقيا في عام 1975 ويمكن أن تقدم تعريفاً عاماً للإنسان منتصب القامة، كما تظهر في الجهة اليسرى الجمجمة KNM-ER 3733 التي ما زال الغموض يحيط بها.

إن السعة الجمجمية لجميع متحجرات الإنسان منتصب القامة المتباينة هذه تتراوح بين 900 و1100 سم3، وتقع هذه الأرقام ضمن حدود سعة الجماجم البشرية المعاصرة.

قد تكون الجمجمة KNM-WT 15000 (أو جمجمة طفل توركانا) التي تظهر على الجانب أقدم حفرية بشرية على الأرجح بل وأكمل حفرية بشرية تم العثور عليها حتى الآن. ويتضح من البحوث التي أجريت على هذه المتحجرة التي يقال إن عمرها يبلغ 6 , 1 مليون سنة أنها تنتمي إلى طفل عمره 12 سنة كان طوله سيبلغ 180 سم إذا بلغ مرحلة المراهقة. وهذه المتحجرة، التي تماثل الجنس النياندرتالي، تشكل أحد أعظم الأدلة روعةً التي تبطل قصة التطور البشري. ويصف العالم التطوري دونالد جونسون هذه المتحجرة كالتالي: كان طويلاً ونحيفاً. كان شكل جسده والتناسب بين أطرافه مثل الأفارقة الحاليين الذين يعيشون عند خط الاستواء، كما أن حجم أطرافه كان متوافقاً كلياً مع حجم أطراف البالغين الحاليين من البيض الذين يعيشون في أميركا الشمالية.

بحارة قبل 700 ألف سنة



كان البشر القدامى أذكى مما توقعنا بكثير...
تبلغنا الأخبار التي نشرت في مجلة العالم الجديد الصادرة في 14 مارس 1998 أن البشر -الذين يطلق عليهم دعاة التطور اسم الإنسان منتصب القامة- كانوا يمارسون فن الملاحة منذ 700 ألف سنة. وهؤلاء البشر، الذين توفرت لديهم معلومات وتكنولوجيا كافية مكنتهم من بناء سفينة واكتساب ثقافة استفادت من النقل البحري،لا يمكن أن نعدهم بدائيين.

بدرجة لم تُلحَظ في أية عينة من عينات القردة الجنوبية أو الإنسان القادر على استخدام الأدد وات. ولا يوجد أي فرق بين الهيكل العظمي للإنسان العصري وما يسمى الإنسان منتصب القامة.

ويتمثل السبب الرئيسي الذي دفع دعاة التطور إلى تعريف الإنسان منتصب القامة على أنه بدائي في سعة جمجمته (900 - 1100 سم3)، التي تعتبر أصغر من متوسط السعة لدى الإنسان العصري، وكذلك في نتوءات حواجبه الكثيفة. ومع ذلك، فإن كثيراً من الأشخاص الذين يعيشون في العالم اليوم لديهم نفس السعة الجمجمية للإنسان منتصب القامة (مثل الأقزام على سبيل المثال، وهناك أجناس أخرى تتسم أيضاً بنتوء الحواجب مثل سكان أستراليا الأصليين على سبيل المثال.

ومن الحقائق المتفق عليها عادة أن الاختلافات في سعة الجمجمة لا تنم -بالضرورة- عن وجود اختلافات في الذكاء أو القدرات؛ ذلك أن الذكاء يعتمد على التنظيم الداخلي للمخ أكثر منه على حجمه. [71]

وتتجسد المتحجرات التي عرّفت العالم بالإنسان منتصب القامة في متحجرتَي إنسان بكين وإنسان جاوة المكتشفتَين في آسيا. ولكن اتضح بمرور الوقت أن هاتين المتحجرتين لا

يمكن الاعتماد عليهما؛ لأن إنسان بكين ليس سوى بعض عناصر من الجبس فقدت أصولها، في حين أن إنسان جاوة كان مركَّباً من جزء من جمجمة أضيف إليه عظمة حوض تم العثور عليها على بعد أمتار من الجمجمة دون وجود أية دلائلٍ على أن هاتين القطعتين تنتميان إلى نفس الكائن الحي. لهذا السبب، حظيت متحجرات الإنسان منتصب القامة التي عثر عليها في أفريقيا بأهمية متزايدة.

ولعل أشهر العينات المكتشفة في أفريقيا للإنسان منتصب القامة هي متحجرة Narikotome homo erectus **أو غلام توركانا** (Turkana Boy) **التي عُثر عليها قرب بحيرة توركانا في كينيا. وقد تم التأكيد على أن المتحجرة لغلام في الثانية عشر من عمره كان سيصل طوله في سن المراهقة إلى نحو 183 سم. ولم يكن التركيب العمودي الخاص بالهيكل العظمي للمتحجرة يختلف عن مثيله في الإنسان العصري. وفي هذا الصدد قال عالم المتحجرات الأمريكي ألان والكر إنه يشك في قدرة أي عالم بالانتولوجي على التمييز بين الهيكل العظمي لهذه المتحجرة وبين الهيكل العظمي للإنسان العصري [72] وبالنسة للجمجمة قال والكر: إنها أشبه ما تكون بجمجمة الإنسان النياندرتالي [73] وكما سنرى في الفصل الآتي، يعد الإنسان النياندرتالي أحد أجناس الإنسان العصري.**

وحتى ريتشارد ليكي، الذي يعتبر أحد دعاة التطور، أدلى بتصريح مفاده أن الاختلافات الموجودة بين الإنسان منتصب القامة وبين الإنسان العصري ليست أكثر من مجرد تنوعات بين الأجناس:

سيرى المرء أيضاً اختلافات في شكل الجمجمة ودرجة بروز الوجه وغلظة الحواجب، وغير ذلك. ولكن هذه الاختلافات ليست أكثر وضوحاً على الأرجح من الاختلافات التي نراها اليوم بين الأجناس الجغرافية المنفصلة للإنسان العصري. ويظهر هذا التنوع البيولوجي عندما تنفصل الجماعات جغرافياً عن بعضها البعض لفترات طويلة جداً من الزمن. [74]

وقد أجرى البروفسور ويأتيام لاولن من جامعة كونكتكت دراسات تشريحية مكثفة على شعوب الأسكيمو وسكان جزر أليوت ولاحظ وجود تشابه غير عادي بين هؤلاء الناس والإنسان منتصب القامة. وتجسد الاستنتاج الذي توصل إليه لاولن في أن كل هذه الأجناس المميزة هي -في الواقع- أجناس مختلفة من الإنسان العاقل أي الإنسان العصري:

عندما نتأمل الاختلافات الشاسعة الموجودة بين المجموعات المنعزلة أمثال الأسكيمو

والبوشمان، التي من المعروف أنها تنتمي إلى نوع الإنسان العاقل، يبدو من المبرَّر أن يستنتج المرء أن هذه العينات المكتشَفة من الإنسان المنتصب - المعروف بتنوعه - تنتمي إلى نفس نوع هومو سابينس أي الإنسان العصري. (75)

ومن ناحية أخرى، توجد فجوة هائلة بين الإنسان منتصب القامة- أي الجنس البشري - في سيناريو التطور الموضوع وبين أنواع القردة في هذا السيناريو وهي : القردة الجنوبية والإ نسان القادر على استخدام الأدوات وإنسان رودولف). ويعني هذا أن البشر الأوائل قد ظهروا في سجل المتحجرات فجأة وعلى الفور دون أي تاريخ تطوري، ولا يمكن أن توجد دلالة أوضح من ذلك على أنهم قد خُلقوا.

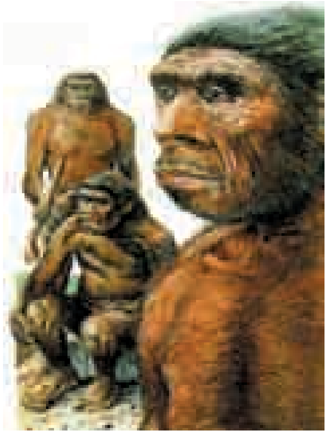
ولكن الاعتراف بهذه الحقيقة يتعارض تماماً مع الفلسفة والأيدلوجية المتعنتة لدعاة التطور. ونتيجة لذلك، يحاول هؤلاء الدعاة أن يصوروا الإنسان منتصب القامة، وهو جنس بشري بحق، على أنه كائن نصفه قرد. لذلك نجد أنهم عندما يعيدون بناء الإنسان منتصب القامة يتشبثون برسمه بملامح القرود. ومن ناحية أخرى، وباستخدام نفس طرق الرسم، يضفون الصبغة البشرية على قرَدة أمثال القرد الجنوبي وما يسمونه الإنسان القادر على استخدام الأدوات. وبهذه الطريقة، يسعون إلى تقريب القردة إلى البشر وإغلاق الفجوة الكبيرة بين هاتين الطائفتين المتميزتين من الأحياء.

النياندرتاليون

النياندرتاليون (Neanderthals) هم عبارة عن مجموعة من البشر ظهرت فجأة قبل مئة ألف سنة في أوروبا واختفت (أو تم استيعابها في أجناس أخرى عن طريق الامتزاج) بهدوء ولكن بسرعة منذ 35 ألف سنة. وكان الفرق الوحيد بينهم وبين الإنسان العصري هو أن هيكلهم العظمي أقوى وسعة جمجمتهم أكبر قليلاً.

ويُعدّ النياندرتاليون جنساً بشرياً، ويكاد الجميع يعترف بهذه الحقيقة اليوم. وقد حاول دعاة التطور بشدة أن يقدموهم على أنهم نوع بدائي، ولكن كل الاكتشافات تدل على أنهم لا يختلفون عن أي إنسان قوي يمشي في الشارع اليوم. وقد كتب أحد العلماء الثقات المشهورين في هذا الموضوع (وهو إريك تراينكاوس، عالم المتحجرات من جامعة نيومكسيكو) ما يأتي:

لقد أظهرت المقارنات التفصيأتية بين بقايا الهيكل العظمي للإنسان النياندرتالي وبقايا



أقنعة زائفة: على الرغم من أنهم لا يختلفون عن الإنسان المعاصر، إلا أن دعاة التطور ما زالوا يصورون النياندرتاليين على أنهم يشبهون القردة.

الهيكل العظمي للإنسان العصري عدم وجود أي شيء في تشريح الإنسان النياندرتالي يدلل بشكل قاطع على أن قدراته الحركية أو اليدوية أو الفكرية أو اللغوية أقل من نظيراتها في الإنسان العصري. (76)

ولهذا السبب يعمد العديد من الباحثين المعاصرين إلى تعريف الإنسان النياندرتالي بوصفه نوعاً فرعياً من أنواع الإنسان العصري ويطلقون عليه اسم الجنس النياندرتالي للإنسان العاقل (Homo sapiens neandertalensis). **وتثبت الاكتشافات العلمية أن النياندرتاليين كانوا يدفنون موتاهم، ويصنعون الآلات الموسيقية، وتجمعهم قرابات ثقافية مع الإنسان العصري الذي كان يعيش في نفس الفترة الزمنية. وعلى نحو دقيق: يعتبر النياندرتاليون جنساً بشرياً قوياً انقرض فقط بمرور الزمن.**

الإنسان العاقل القديم، والهومو هيلدربرجنسيس، والإنسان الكرومانيوني

يُعد الإنسان العاقل القديم (Homo Sapiens Archaic) **آخر خطوة قبل الإنسان العصري في المخطط التخيأتي للتطور. وفي الواقع، لا يملك دعاة التطور الكثير ليقولوه عن هؤلاء البشر، إذ لا توجد سوى اختلافات بسيطة جداً بينهم وبين الإنسان العصري. بل يذهب بعض الباحثين إلى القول بأن ممثلي هذا الجنس ما زالوا أحياء حتى اليوم، ويشيرون إلى السكان الأصليين في أستراليا كمثال. ويتسم السكان الأصليون هناك أيضاً، مثلهم مثل الإنسان العاقل، بحواجب بارزة كثيفة وفك سفلي مائل إلى الأمام وجمجمة سعتها أصغر قليلاً. وفضلاً عن ذلك، حدثت اكتشافات مهمة تلمح إلى أن مثل هؤلاء البشر قد عاشوا في المجر وفي بعض قرى إيطاليا قبل فترة ليست بعيدة.**

أما فيما يتصل بمجموعة البشر المعروفة في أدب التطور باسم هومو هيلدربرجنسيس (Homo Heilderbergensis)**، فإنها تعد من نفس مجموعة الإنسان العاقل القديم. ويرجع السبب في استخدام مصطلحَين مختلفين لتعريف الجنس البشري ذاته إلى اختلاف المفاهيم**



النياندرتاليون: أناس بأجسام قوية

تظهر في الجزء العلوي جمجمة شخص من الجنس النياندرتالي (سُمّي أمود 1) عُثر عليها في فلسطين. ويُعرف عن الإنسان النياندرتالي عموماً أنه قوي ولكنه قصير. ومع ذلك، يقدر طول صاحب هذه المتحجرة بنحو 180 سم. وتعتبر سعة جمجمته أكبر سعة ظهرت حتى الآن: 1740 سم3. ولكل هذه الأسباب، تحتل هذه المتحجرة مكانة مهمة ضمن الدلائل التي تقضي تماماً على الادعاءات القائلة بأن النياندرتاليين كانوا نوعاً بدائياً.

لدى دعاة التطور. وتشير كل المتحجرات المتضمَّنة تحت تصنيف الهومو هيلدربرجنسيس إلى أنهم أشخاص يشبهون الأوروبيين العصريين شبهاً كبيراً من الناحية التشريحية، وقد عاشوا في إنكلترا أولاً ثم في إسبانيا قبل خمسمئة ألف إلى سبعمئة ألف سنة.

وتشير التقديرات إلى أن الإنسان الكرومانيوني (Cro-Magnon) قد عاش قبل ثلاثين ألف سنة، وكان يتميز بجمجمة على شكل قبة وجبين عريض. وكانت سعة جمجمته البالغة 1600 سم3 تفوق متوسط سعة جمجمة الإنسان العصري وتبرز منها حواجب كثيفة، كما كان يتسم بنتوء عظمي في الظهر يعد أحد السمات المميزة لكل من الإنسان النياندرتالي والإ نسان منتصب القامة.

وعلى الرغم من أن الإنسان الكرومانيوني يُعتبر جنساً أوروبياً، إلا أن بنية جمجمته وحجمها يشبهان -بدرجة كبيرة- بعض الأجناس التي تعيش في أفريقيا والمناطق الاستوائية اليوم. واستناداً إلى هذا الشبه، يرى البعض أن الإنسان الكرومانيوني كان أحد الأجناس الأفريقية القديمة. وقد بينت بعض الاكتشافات الباليوأنثروبولوجية الأخرى أن الأجناس الكرومانونية والنياندرتالية قد امتزجت مع بعضها البعض ووضعت الأسس للأجناس التي نراها اليوم. وبالإضافة إلى هذا، فمن المقبول في أيامنا الحالية أن ممثلي الجنس الكرومانيوني ما زالوا يعيشون في مناطق مختلفة من قارة أفريقيا وفي إقليمي سالوت ودوردوين في فرنسا، وقد لوحظ أيضاً وجود أناس يتصفون بصفات مشابهة يعيشون في بولندا والمجر.

أنواع تعيش في نفس العصر مع أسلافها!!

يشكل كل ما درسناه حتى الآن صورة واضحة لنا، ألا وهي: إن سيناريو تطور الإنسان هو خيال في خيال. ذلك أنه لكي توجَد شجرة عائلة كهذه، يجب أن يكون تطور تدريجي قد حدث من القرد إلى الإنسان، كما يجب أن يكون سجل المتحجرات الخاص بهذا التطور قد تم اكتشافه. ومع ذلك، توجد فجوة هائلة بين القِرَدة والبشر؛ إذ يُعدّ بناء الهيكل العظمي، وسعة الجمجمة، ومعايير أخرى مثل المشي بقامة منتصبة أو بانحناء حاد إلى الأمام، من العلامات المميزة الفارقة بين البشر والقردة (وقد أشرنا إلى البحث الحديث الذي أجري في سنة 1994 حول قنوات التوازن في الأذن الداخلية، حين تم تصنيف القرد الجنوبي والإنسان القادر على استخدام الأدوات ضمن فئة القردة، بينما صُنِّف الإنسان منتصب القامة ضمن فئة البشر).



إبرة عمرها 26 ألف سنة: متحجرة مثيرة تبين أن النياندرتاليين كانت لديهم معرفة بالملابس (عن جونسون وإدغار في كتابيهما: من لوسي إلى اللغة، ص 99).

وهناك اكتشاف مهم آخر يؤكد عدم إمكانية وجود شجرة عائلة بين هذه الأنواع المختلفة، ويتمثل هذا الاكتشاف في أن الأنواع التي تم تقديمها على أنها أسلاف لبعضها البعض قد عاشت -في الواقع- مع بعضها البعض في نفس العصر. فإذا كان القرد الجنوبي قد تحول -حسبما يدعي دعاة التطور- إلى إنسان قادر على استخدام الأشياء، وإذا كان هذا الا نسان قد تحول، بدوره، إلى إنسان منتصب القامة، فيُفترض -بالضرورة- أن تكون هذه الكائنات قد عاشت في عصور متعاقبة. ومع ذلك، لا يوجد مثل هذا الترتيب الزمني.

وحسب تقديرات دعاة التطور، فقد عاشت القردة الجنوبية منذ أربعة ملايين سنة حتى مليون سنة مضت. ومن ناحية أخرى، يُعتقد أن الكائنات الحية التي تصنف على أنها إنسان قادر على استخدام الأدوات قد عاشت حتى 7 , 1 إلى 9 , 1 مليون سنة مضت. أما فيما يتصل بإنسان رودلف، الذي يقال إنه أكثر تطوراً من الإنسان القادر على استخدام الأدوات، فمن المعروف أن عمره يتراوح بين 5 , 2 و 8 , 2 مليون سنة! أي أن إنسان رودلف أكبر بما يقرب من مليون سنة من الإنسان القادر على استخدام الأدوات الذي يُفترض أن يكون سَلَفاً له! ومن ناحية أخرى، يرجع عمر الإنسان منتصب القامة إلى نحو 6 , 1 مليون سنة؛ مما يعني أن عينات الإنسان منتصب القامة قد ظهرت على الأرض في نفس الإطار الزمني لسلفها المزعوم، أي الإنسان القادر على استخدام الأدوات.

ويؤكد آلان والكر على هذه الحقيقة قائلا: توجد أدلة من شرقي أفريقيا على أن أفراداً قليأتين من فئة القردة الجنوبية قد كُتب لهم البقاء حتى فترة متأخرة كانت تعاصر أولاً الإنسان

القادر على استخدام الأدوات، ثم الإنسان منتصب القامة [77] وقد عثر لويس ليكي على متحجرات لكل من القرد الجنوبي والإنسان القادر على استخدام الأدوات والإنسان منتصب القامة تكاد تكون مجاورة لبعضها في إقليم أولدوفاي جورج في الطبقة الثانية من طبقات الأرض. [78]

ومن المؤكد أنه لا وجود لشجرة عائلة من هذا النوع. ويفسر عالم المتحجرات من جامعة هارفرد، ستيفن جاي غولد، هذا المأزق الذي يواجه نظرية التطور -على الرغم من كونه هو نفسه من دعاة التطور- بقوله:

ماذا حل بسلّمنا في التطور إذا كانت هناك ثلاث سلالات من الكائنات الشبيهة بالإنسان -القردة الجنوبية الإفريقية والقردة الجنوبية القوية والإنسان القادر على استخدام الأدوات- تعيش معاً في نفس الفترة الزمنية، ومن الواضح أن أياً منها لم ينحدر من الآخر؟ وفوق ذلك، لا تبدي أية سلالة من السلالات الثلاث أية ميول تطورية أثناء فترة بقائها على الأرض![79]

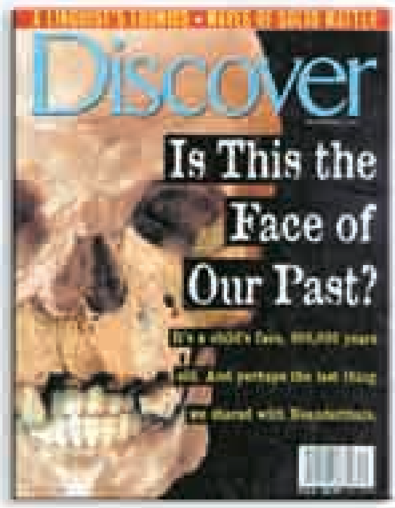
وعندما ننتقل من الإنسان منتصب القامة إلى الإنسان العاقل، نرى -ثانيةً- أنه لا توجد أية شجرة عائلة يمكن أن نتحدث عنها. فهناك أدلة تبين أن الإنسان منتصب القامة والإنسان العاقل القديم قد ظلا على قيد الحياة حتى قبل 27 ألف سنة، بل حتى عشرة آلاف سنة من زمننا الحالي. ففي مستنقع كاو بأستراليا تم العثور على جماجم لأناس منتصبي القامة يبلغ عمرها نحو 13 ألف سنة تقريباً، أما في جزيرة جاوة فقد عُثر على جمجمة إنسان منتصب القامة عمرها 27 ألف سنة. [80]

التاريخ السري للإنسان العاقل

إن أكثر حقيقة مدهشة ومهمة تقوم بإبطال الأساس الذي تقوم عليه شجرة العائلة المتخيلة في نظرية التطور هي تاريخ الإنسان العصري الموغل في القدم بشكل غير متوقع. ذلك أن البيانات الباليوأنثروبولوجية تكشف أن الأشخاص المنتمين إلى نوع الإنسان العاقل، الذين كانوا يشبهوننا تماما، قد عاشوا حتى تاريخ يمتد إلى ما يقرب من مليون سنة ماضية.

وجدير بالذكر أن لويس ليكي، عالم الباليوأنثروبولجيا الشهير التطوري، هو الذي توصل إلى أول الاكتشافات حول هذا الموضوع. فقد عثر ليكي في سنة 1932 في إقليم كانجيرا حول بحيرة فكتوريا بكينيا على بضع متحجرات تعود إلى العصر البلستوسيني

الأوسط لم تكن تختلف عن الإنسان العصري في شئ. ولكن العصر البلستوسيني الأوسط يعني مليون سنة مضت [81]. وبما أن هذه الاكتشافات قد قلبت شجرة العائلة التطورية رأساً على عقب، فقد رفضها بعض علماء الباليوأنثروبولجيا من أنصار التطور. ومع ذلك، ظل ليكي يؤكد دائماً أن تقديراته كانت صحيحة.



قامت واحدة من أكثر الدوريات شعبية في مجال أدبيات التطور، مجلة Discover، بوضع وجه الإنسان البالغ من العمر 800 ألف سنة على غلافها مصحوباً بسؤال دعاة التطور: هل كان هذا وجهنا في الماضي؟.

وعندما كان هذا الجدل على وشك أن يأخذ طريقه إلى النسيان، أد ت متحجرة عُثر عليها في أسبانيا سنة 1995 إلى الكشف بطريقة رائعة عن أن تاريخ الإنسان العاقل أقدم بكثير مما كان مفترضاً. وقد عُثر على المتحجرة محل النقاش في كهف يعرف باسم غْرانْ دولينا في منطقة أتابوركا في إسبانيا بواسطة ثلاثة من علماء الباليوأنثروبولجيا الإسبان من جامعة مدريد. وكانت المتحجرة لوجه غلام في الحادية عشرة من عمره يشبه الإنسان العصري تماماً، ولكن ثمانمئة ألف سنة قد انقضت على موت الطفل. وقد غطت القصةَ مجلةُ Discover، في عددها الصادر في كانون الأول (ديسمبر) سنة 1997 بقدر كبير من التفصيل.

لقد زعزعت هذه المتحجرة معتقدات فيرارس الذي قاد البعثة الاستكشافية لكهف غران دولينا. فقد قال فيرارس:

لقد توقعنا أن نجد شيئاً كبيراً، شيئاً ضخماً منتفخاً... كما تعلم، شيئا بدائياً لقد توقعنا أن يكون غلام عمره ثمانمئة ألف سنة مشابهاً لطفل توركانا، ولكن ما عثرنا عليه كان وجهاً معاصراً تماماً. بالنسبة لي كان الأمر مثيراً... لقد كان العثور على شئ غير متوقع أبداً كهذا من نوعية المواقف التي تهز كيانك؛ فعدم العثور على متحجرات أمر غير متوقع مثلما يُعتبر العثور عليها أمراً غير متوقع أيضاً، ولكن لا بأس في ذلك. غير أن أروع ما في الأمر أن ما كنت تعتقد أنه ينتمي إلى الحاضر اتضح أنه ينتمي إلى الماضي. إن الأمر يشبه العثور على شئ مثل... مثل جهاز تسجيل في كهف غران دولينا. سيكون هذا أمرا مدهشاً جداً؛ فنحن لا نتوقع العثور على أشرطة كاسيت وأجهزة تسجيل في العصر البلستوسيني الأسبق. ويعتبر العثور على وجه

معاصر أمراً مماثلاً. لذلك فقد دُهشنا جداً عندما رأينا هذا الوجه.[82]

لقد أكدت المتحجرة على أن تاريخ الإنسان العاقل يجب أن يعود إلى ثمانمئة ألف سنة مضت. وبعد أن أفاق علماء التطور الذين اكتشفوا المتحجرة من الصدمة الأولى، قرروا أن المتحجرة تنتمي إلى نوع مختلف، لأنه -وفقاً لما ورد في شجرة العائلة التطورية- ليس من المفترَض أن يكون الإنسان العاقل قد عاش قبل ثمانمئة ألف سنة. ولهذا السبب اختلقوا نوعاً خيالياً أطلقوا عليه اسم الإنسان السَّلَف (Homo antecessor) وضموا جمجمة أتابوركا إلى هذا التصنيف.

كوخ عمره 1,7 مليون سنة

هناك الكثير من الاكتشافات التي تثبت وجود الإنسان العاقل حتى قبل 800 ألف سنة. وتتمثل إحدى هذه الاكتشافات في اكتشاف لويس ليكي الذي عثر عليه في أوائل السبعينيات في منطقة أولدوفي جورج. ففي هذه المنطقة، وبالتحديد في الطبقة الثانية من طبقات الأرض (Bed II) اكتشف ليكي أن أنواع القرد الجنوبي والإنسان القادر على استخدام الأدوات والإنسان منتصب القامة كانت تعيش معاً في نفس الفترة الزمنية. ولكن الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو البناء الذي عثر عليه ليكي في الطبقة نفسها (الطبقة الثانية). ففي هذه الطبقة، عثر ليكي على بقايا كوخ حجري. ويتمثل الجانب غير العادي في هذا الحدث في أن هذا البناء، الذي لا يزال يستخدم في بعض أجزاء من أفريقيا، ما كان يمكن لأحد أن يقوم ببنائه غير الإنسان العاقل! ومن ثم، ووفقاً لما توصل إليه ليكي، فلا بد أن يكون القرد الجنوبي، والإنسان القادر على استخدام الأدد وات، والإنسان منتصب القامة، والإنسان العصري، قد عاشوا معاً قبل نحو 1,7 مليون سنة تقريباً.[83]



سببت اكتشافات كوخ عمره 1,7 مليون سنة صدمة للمجتمع العلمي. لقد كان يشبه الأكواخ التي يستخدمها بعض الأفارقة اليوم.

ولا يوجد شك في أن هذا الاكتشاف لا بد أن يبطل نظرية التطور التي تدّعي أن الإنسان العصري قد تطور من أنواع شبيهة بالقردة مثل القرد الجنوبي.

آثار أقدام إنسان عصري عمرها 3,6 مليون سنة!

تُرجع بعض الاكتشافات الأخرى -بالفعل- أصول الإنسان العصري إلى ما قبل 1,7 مليون سنة. ومن أهم هذه الاكتشافات آثار الأقدام التي عثرت عليها ماري ليكي سنة 1977 في منطقة لاتولي في تنزانيا. لقد عثرت ماري على الآثار في إحدى طبقات الأرض التي قُدِّر عمرها بنحو 3,6 مليون سنة، والأهم من ذلك أن هذه الآثار لم تكن تختلف عن آثار الأقدام التي يخلّفها الإنسان العصري.

وقد درس آثارَ الأقدام التي عثرت عليها ماري ليكي -فيما بعد- عددٌ من علماء الباليوأنثروبولجيا المشهورين من أمثال دون يوهانسون وتيم وايت، وجاءت النتائج مماثلة. وقد كتب وايت ما يأتي:

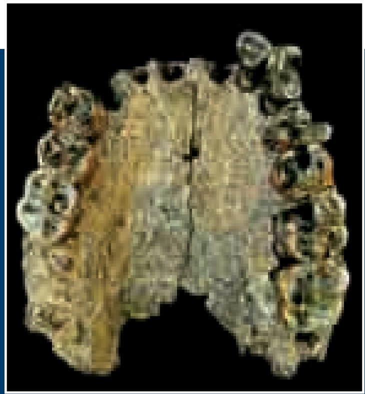


آثار أقدام لاتولي كانت تنتمي إلى بشر معاصرين، ومع ذلك كان عمرها ملايين السنين.

لا يوجد أدنى شك في أن هذه الآثار تشبه آثار أقدام الإنسان العصري؛ ولو أنها تُركت على رمال أحد شواطئ كاليفورنيا وسئل طفل في الرابعة من عمره عن ماهيتها فسيجيب في الحال أن شخصاً ما مشى هناك، ولن يستطيع التمييز بينها وبين المئات من الآثار الأخرى المطبوعة على الشاطئ، ولن تستطيع أنت كذلك! [84]

وبعد أن فحص لويس روبنز (من جامعة شمالي كاليفورنيا) آثار الأقدام أدلى بالتعليق الآتي:

إن قوس القدم مرتفع، ومن الواضح أن أصغر شخص في هذا النوع يتمتع بقوس أعلى من قوس قدمي، كما أن إصبع القدم الكبير ضخمٌ ومحاذٍ للإصبع الثاني... وتقبض أصابع القدم على الأرض مثلًما تقبض عليها أصابع الإنسان. وأنت لا ترى هذا في أشكال الحيوانات الأخرى. [85]



مثال آخر يبين بطلان شجرة العائلة المتخيَّلة التي ابتكرها دعاة التطور: فك سفلي عمره 3 , 2 مليون سنة لإنسان عصري (إنسان عاقل .وقد اكتُشف هذا الفك (المسمى بالرقم الرمزي AL 666-1) في هادار بأثيوبيا، وتحاول مطبوعات دعاة التطور التغاضي عنه بالإشارة إليه بوصفه اكتشافاً مذهلاً جداً... (عن جونسون وإدغار في كتابيهما: من لوسي إلى اللغة، ص 169).

وقد أظهرت الدراسات التي أُجريت على البنية الشكلية لآثار الأقدام مراراً وتكراراً أنها كان يجب أن تُقبل بوصفها آثار أقدام إنسان، بل أكثر من ذلك، آثار أقدام إنسان عصري (إنسان عاقل). وقد كتب راسل تاتل الذي فحص الآثار قائلاً:

تعود هذه الآثار لأقدام إنسان عاقل(هوموسايبينس)... ومن بين كل السمات الشكلية القابلة للتمييز لا يمكن التمييز بين أقدام الأفراد الذين خلفوا هذه الآثار وبين أقدام الإنسان العصري.[86]

وقد كشفت الدراسات المحايدة التي أجريت على آثار الأقدام عن أصحابها الحقيقيين. فآثار الأقدام هذه قد تكونت -بالفعل- من عشرين أثراً متحجراً لإنسان عصري في العاشرة من عمره وسبعة وعشرين أثراً لإنسان أصغر عمراً. لقد كانوا بالتأكيد أناساً عاديين مثلنا.

لقد جعل هذا الموقف آثار أقدام لاتولي مركزاً للمناقشات لسنين، وقام علماء الباليوأنثروبولجيا من أنصار نظرية التطور بمحاولات يائسة لإيجاد تفسير للموقف لأنه كان من الصعب عليهم أن يقبلوا حقيقة أن إنساناً عصرياً كان يمشي على ظهر الأرض قبل 6 , 3 مليون سنة. وخلال فترة التسعينيات، بدأ هذا التفسير يتبلور؛ إذ قرر دعاة التطور أن آثار الأقدام هذه كان يجب أن تكون من مخلفات القرد الجنوبي، فحسبما ورد في نظريتهم: يستحيل أن يوجد إنسان عاقل قبل 6 , 3 مليون سنة. وكتب راسل تاتل في مقاله الصادر في سنة 1990 ما يأتي:

في المجمل تشبه آثار الأقدام البالغة من العمر 5 , 3 مليون سنة والتي عُثر عليها في الموقع G بمنطقة لاتولي آثار الأقدام المعتادة لإنسان عصري لا ينتعل حذاء. ولا توحي أي من سماتها أن كائنات منطقة لاتولي الشبيهة بالبشر كانت حيوانات ثنائية القدمين أقل قدرة منا، ولو لم

يكن معروفاً أن آثار أقدام الموقع G قديمة جداً لاستنتجنا -بسهولة- أنها تعود إلى فرد من أفراد جنسنا الإنساني... ولكن بسبب مشكلة العمر فنحن مضطرون إلى افتراض أن هذه الآثار تعود لمخلوق من نوع (لوسي)، أي من نوع A. Afarensis) (87)

وباختصار، من غير الممكن أن تكون آثار الأقدام هذه التي يُفترض أن عمرها 6 , 3 مليون سنة خاصة بقرد جنوبي. وكان السبب الوحيد الذي دعا إلى الاعتقاد بأن آثار الأقدام قد تخلفت عن قرد جنوبي هو الطبقة البركانية البالغة من العمر 6 , 3 مليون سنة التي عُثر فيها على آثار الأقدام، وقد نُسبت الآثار إلى قرد جنوبي على افتراض أن البشر ليس من الممكن أن يكونوا قد عاشوا في مثل هذا العصر المبكر.

وتبين لنا التأويلات الخاصة بآثار أقدام لاتولي حقيقة في غاية الأهمية ألا وهي: أن دعاة التطور لا يدافعون عن نظريتهم عن طريق دراسة الاكتشافات العلمية... بل رغماً عنها! وهنا: لدينا نظرية يتم الدفاع عنها دفاعاً أعمى بغض النظر عن أي شئ، مع إهمال أو تشويه كل المكتشفات الجديدة التي تعارض النظرية لخدمة أغراضها.

وباختصار، لا تعد نظرية التطور علماً، بل هي عقيدة تم إبقاؤها على قيد الحياة رغماً عن أنف العلم.

مأزق المشي على قدمين الذي يواجه نظرية التطور

بصرف النظر عن سجل المتحجرات الذي تناولناه حتى الآن، تبقى فجوات لا يمكن إغلاقها في الصفة التشريحية بين الإنسان والقردة، وتؤدي هذه الفجوات إلى إبطال رواية تطور الإنسان. وتتمثل إحدى هذه الفجوات في طريقة المشي.

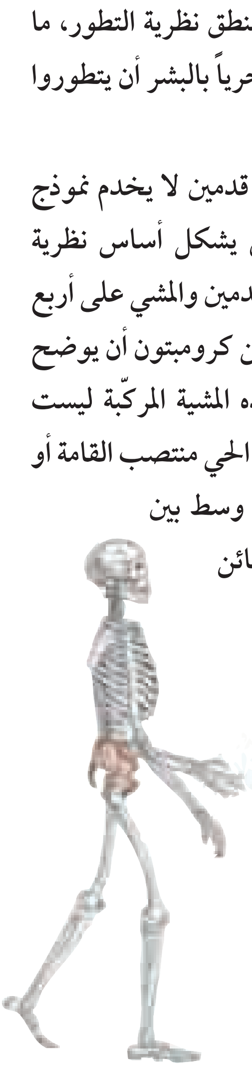
إذ يمشي الإنسان منتصب القامة على قدمين، وتُعتبر هذه المشية نوعاً خاصاً للغاية من أنواع الحركة لا يمكن مشاهدتها في أي نوع آخر. وهناك بعض الحيوانات الأخرى التي تتمتع بقدرة محدودة على الحركة أثناء وقوفها على قدميها الخلفيتين؛ إذ يتسنى لحيوانات مثل الدببة والقردة أن تتحرك بهذه الطريقة، ولكنها تلجأ إليها في أحيان نادرة (حينما تود -مثلاً- أن تصل إلى مصدر طعام) ولا تقوم بها إلا لفترة قصيرة، إذ عادة ما تميل هياكلها العظمية إلى الأمام وتمشي على أطرافها الأربعة كلها.

حسنا إذن، هل تطور المشي على قدمين من مشية القردة على أربع أقدام كما يدعي دعاة

التطور؟

بالطبع لا. فقد أظهرت البحوث أن تطور المشي على القدمين لم يحدث، ولا يمكن أن يكون قد حدث. أولاً، لأن المشي على قدمين لا يُعد ميزة تطورية، فالطريقة التي تتحرك بها القردة أسهل وأسرع وأكفأ من مشية الإنسان على قدمين. فلا يستطيع الإنسان أن يتحرك بالقفز من شجرة إلى شجرة دون أن يخطو على الأرض مثل الشمبانزي، كما أنه لا يستطيع الجري بسرعة 125 كيلومتراً في الساعة مثل الفهد. بل على العكس، بما أن الإنسان يمشي على قدميه، فإنه يتحرك على الأرض بسرعة أبطأ بكثير. ولنفس السبب، يعد الإنسان أحد أكثر الأنواع غير المحمية في الطبيعة من حيث الحركة والدفاع عن النفس. ووفقاً لمنطق نظرية التطور، ما كان من المفترض أن تتطور القردة لتتبنى المشي على القدمين؛ بل كان حرياً بالبشر أن يتطوروا ليصبحوا من الكائنات التي تمشي على أربع!

ويتمثل مأزق آخر يعاني منه الادعاء التطوري في أن المشي على قدمين لا يخدم نموذج التطور التدريجي الخاص بالدارونية. إذ يتطلب هذا النموذج (الذي يشكل أساس نظرية التطور، أو النشوء والارتقاء) وجود مشية مركّبة تجمع بين المشي على قدمين والمشي على أربع أقدام. ومع ذلك، فقد استطاع عالم الباليوأنثروبولوجيا الإنكليزي روبن كرومبتون أن يوضح -بواسطة البحث الحاسوبي الذي أجراه في سنة 1996- أن مثل هذه المشية المركّبة ليست ممكنة. وقد توصل كرومبتون إلى الاستنتاج الآتي: إما أن يمشي الكائن الحي منتصب القامة أو على أطرافه الأربعة كلها (88) إذ من غير الممكن أن تكون هناك مشية وسط بين الاثنين بسبب فرط استهلاك الطاقة، ولهذا السبب يستحيل أن يوجد كائن نصفه يمشي على قدمين.





تكشف البحوث الحديثة استحالة تطور هيكل القرد المنحني الملائم للمشي على أربع أقدام إلى هيكل إنسان منتصب القامة ملائم للمشي على قدمين.

ولا تقتصر الفجوة الهائلة بين الإنسان والقرد على المشي على قدمين فحسب؛ إذ ما زالت هناك موضوعات تبحث عن تفسير مثل: سعة الدماغ، والقدرة على الكلام، إلى غير ذلك من أمور. وتدلي إلين مورجان، وهي عالمة باليوأنثروبولوجيا ومن دعاة التطور، بالاعتراف الآتي فيما يتصل بهذا الأمر:

هناك أربعة أسرار تُعد من أبرز الأسرار التي تحيط بالبشر وهي:

1- لماذا يمشون على قدمين؟

2- لماذا فقدوا فراءهم؟

3- لماذا أصبحوا يملكون هذه الأدمغة الكبيرة؟

4- لماذا تعلّموا الكلام؟

وتعد الأجوبة التقليدية لهذه الأسئلة هي:

1- نحن لا نعلم بعد؛

2- نحن لا نعلم بعد؛

3- نحن لا نعلم بعد؛

4- نحن لا نعلم بعد! ويمكن أن تطول قائمة الأسئلة بشكل بارز دون أن تتأثر رتابة الأجوبة [89]

نظرية التطور: عقيدة غير علمية

يُعَد اللورد سولي زوكرمان أحد أشهر علماء المملكة المتحدة وأكثرهم احتراماً. ولسنوات عدة، درس زوكرمان سجل المتحجرات وأجرى الكثير من الدراسات المفصلة، وقد تم تكريمه بإعطائه لقب لورد نظير إسهاماته في مجال العلوم. وبما أن زوكرمان من دعاة التطور، فلا يمكن -إذن- اعتبار تعليقاته حول هذا الموضوع مجرد ملاحظات معاكسة متعمدة. ومع ذلك، فبعد سنين من إجراء البحوث على المتحجرات المتضمنة في سيناريو تطور الإنسان توصل إلى نتيجة تقضي بعدم وجود شجرة عائلة من هذا النوع في الحقيقة.

لقد وضع زوكرمان أيضاً طيفاً للعلوم (spectrum of science) يتسم بالإثارة فقد قام بتشكيل طيف من العلوم يمتد من العلوم التي اعتبرها علمية إلى تلك التي اعتبرها غير علمية.

ووفقاً لطيف زوكرمان: تتمثل أكثر العلوم علمية، أي تلك التي تعتمد على معلومات ملموسة، في علوم الكيمياء والفيزياء، تليهما علوم الأحياء، ثم العلوم الاجتماعية. وعلى الطرف الآخر من الطيف-(وهو الجزء الذي يضم أكثر العلوم ابتعاداً عن الصفة العلمية - يوجد الإدراك غير المعتمد على الحواس وهو يتمثل في مفاهيم مثل التخاطر والحاسة السادسة، وأخيراً يجيء تطور الإنسان. ويشرح زوكرمان منطقه قائلاً:

وننطلق -إذن- من سجل الحقيقة الموضوعية إلى المجالات التي من المفترض أنها تتبع علم الأحياء، مثل الإدراك غير المعتمد على الحواس أو تفسير تاريخ متحجرات الإنسان، حيث يصبح كل شيء ممكناً بالنسبة للمؤمن، وحيث يكون المؤمن الغيور أحياناً قادراً على تصديق عدة أشياء متناقضة في نفس الوقت. (90)

ما هو -إذن- السبب الذي يجعل العديد من العلماء يتشبثون إلى هذه الدرجة بهذه العقيدة؟ لماذا ظلوا يبذلون قصارى جهدهم للإبقاء على حياة نظريتهم، على حساب اعترافهم بمتناقضات لا حصر لها ونبذهم للأدلة التي وجدوها؟

وتتمثل الإجابة الوحيدة على هذه الأسئلة في خوفهم من الحقيقة التي سيضطرون إلى مواجهتها في حال تخليهم عن نظرية التطور. وتتجسد تلك الحقيقة في أن الإنسان قد خلقه الله. ومع ذلك، إذا أخذنا في الاعتبار افتراضاتهم المسبقة والفلسفة المادية التي يؤمنون بها، تصبح عملية الخلق مفهوماً غير مقبول بالنسبة لدعاة التطور.

ولهذا السبب فإنهم يخدعون أنفسهم، والعالَم معهم، باستخدام وسائل الإعلام التي يتعاونون معها. وإذا لم يتمكنوا من العثور على المتحجرات الضرورية فإنهم يلفّقونها، إما في شكل صور متخيَّلة أو نماذج زائفة، في محاولة منهم لإعطاء انطباع بأن هناك بالفعل متحجرات دالة على التطور. ويحاول أيضاً جزء من وسائل الإعلام الجماهيرية التي تشاركهم وجهة نظرهم المادية خداع العامة وغرس قصة التطور في عقولهم الباطنة.

ومهما بذلوا من محاولات، تظل الحقيقة جلية؛ إذ لم يأتِ الإنسان إلى حيز الوجود من خلال عملية تطور ولكن الله هو الذي خلقه، ومن ثم يعتبر الإنسانَ مسؤولاً أمام الله مهما كان غير مستعد لتحمل هذه المسؤولية.

المأزق الجزيئي لنظرية التطور

ذكرنا في فصول سابقة من هذا الكتاب كيف أن سجل المتحجرات يبطل نظرية التطور. وفي الواقع فإننا لم نكن بحاجة إلى أن نذكر أي شيء من هذا القبيل؛ لأن نظرية التطور تنهار قبل وقت طويل من وصول المرء إلى أية ادعاءات حول تطور الأنواع وأدلة المتحجرات. ويتمثل الموضوع الذي يجعل النظرية عديمة الجدوى -منذ البداية- في السؤال الخاص بكيفية ظهور الحياة على الأرض أول مرة.

وعندما تتناول نظرية التطور هذه المسألة، تدّعي أن الحياة قد بدأت بخلية تكونت بمحض الصدفة. ووفقاً لسيناريو التطور، فمنذ أربعة بلايين سنة خضعت أعداد متنوعة من المركّبات الكيميائية التي لا حياة فيها إلى تفاعل حدث في جو الأرض البدائي، وفيه حثت الصواعق والضغط هذه المركبات على تكوين أول خلية حية.

بادئ ذي بدء، يجب القول بأن الادعاء القائل إن المواد غير الحية يمكن أن تجتمع معاً لتكوّن حياة هو ادعاء غير علمي لم تثبته أية تجربة أو ملاحظة حتى الآن. ذلك أن الحياة لا تتولد من غير الحياة؛ إذ تتكون كل خلية حية بالنسخ من خلية أخرى، ولم ينجح أبداً أي شخص في العالم في تكوين خلية حية بالجمع بين المواد غير الحية، ولا حتى في أكثر المختبرات تطوراً.

وتدعي نظرية التطور أن خلية الكائن الحي،-التي لا يمكن إنتاجها حتى لو حُشدت كل القوة العقلية والمعلوماتية والتكنولوجية للبشر للقيام بهذا- قد استطاعت مع ذلك أن تتكون بمحض الصدفة تحت ظروف أرضية بدائية. وسوف ندرس في الصفحات الآتية السبب الذي يجعل هذا الإدعاء مناقضاً لأبسط المبادئ الأساسية للعلوم والمنطق.

أسطورة الخلية التي تكونت بمحض الصدفة

إذا صدّق شخص أن الخلية الحية يمكن أن تظهر في الوجود بمحض الصدفة، فلا يوجد ما يمنعه من تصديق قصة مشابهة سنرويها فيما يأتي. إنها قصة مدينة:

ففي أحد الأيام تبلّلُ مياهُ الأمطار كتلةً من الصلصال مضغوطةً بين الصخور في أرض جرداء. ويجف الصلصال المبتلّ ويقسو عند شروق الشمس، ثم يكتسب شكلاً جامداً مقاوِماً.

وبعد ذلك تتهشم الصخور (التي أدَّتْ دور القالب أيضاً بطريقة ما) إلى قطع، ثم تظهر بعد ذلك طوبة مرتبة قوية حسنة الشكل. وتظل هذه الطوبة تحت نفس الظروف الطبيعية لسنين في انتظار تكوين طوبة مشابهة. ويستمر هذا الوضع إلى أن يتكون المئات والآلاف من نفس الطوب في نفس المكان. ومع ذلك، وبمحض الصدفة، لا تتلف أية طوبة من تلك الطوبات التي تكونت في السابق. وعلى الرغم من تعرض الطوب للعواصف والأمطار والرياح والشمس الحارقة والبرد القارص لآلاف السنين، فأنه لا يتصدع، أو ينكسر، أو ينجرف بعيداً، بل يظل منتظراً هناك في نفس المكان وبنفس العزم حتى يتكون طوب آخر!

وعندما يصل عدد الطوب إلى عدد مناسب، يقوم هذا الطوب بتشييد مبنى من خلال الاصطفاف على الجوانب فوق بعضه البعض بعد أن تجره -عشوائياً- تأثيرات الظروف الطبيعية؛ مثل الرياح، أو العواصف، أو الأعاصير. وفي غضون ذلك تتكون مواد مثل خليط الإسمنت أو الرمال بفعل الظروف الطبيعية في توقيت محكم، وتتخلل ما بين الطوب لكي يتماسك بعضه مع بعض. وبينما يحدث كل ذلك، يتشكل خام الحديد تحت الأرض بفعل الظروف الطبيعية ويضع أساساً للمبنى الذي يتم تشييده بهذا الطوب. وفي نهاية هذه العملية، يعلو مبنى كامل دون أن يلحق بمواده ونجارته وتركيباته أي أذى.

وبالطبع، لا يتكون المبنى من أساس وطوب وإسمنت فحسب. ترى، كيف يمكن -إذن- الحصول على كل المواد الأخرى الناقصة؟ الجواب بسيط: توجد جميع المواد المطلوبة لإنشاء المبنى داخل الأرض المشيد عليها هذا المبنى. إذ يوجد السيأتيكون للزجاج، والنحاس للكابلات الكهربائية، والحديد للأعمدة والدعائم ومواسير المياه... توجد كل هذه الأشياء في باطن الأرض بكميات وفيرة، ولا يتطلب الأمر أكثر من مهارة الظروف الطبيعية لتشكيل هذه المواد ووضعها داخل المبنى. وتوضع جميع التركيبات وأعمال النجارة وإكسسوارات البناء بين الطوب بمساعدة الرياح العاصفة، والأمطار، والزلازل!

لقد سار كل شيء على ما يرام لدرجة قيام الطوب بترتيب نفسه بشكل يسمح بترك الفراغات اللازمة للنوافذ، وكأن الطوب يعلم أن هناك شيئاً اسمه الزجاج سيتم تكوينه لاحقاً بفعل الظروف الطبيعية. وفضلاً عن ذلك، لم يُغفِل الطوب تركَ بعض الفراغات للسماح بإدخال المياه والكهرباء ونظم التدفئة، التي ستتكون لاحقاً أيضاً بمحض الصدفة. وهكذا، فقد تم كل شيء على أكمل وجه لدرجة أن المصادفات والظروف الطبيعية أنتجت تصميماً لا تشوبه شائبة!

اعترافات من دعاة التطور

لا تواجه نظرية التطور أزمة أكبر من تلك التي تثيرها النقطة الخاصة بتفسير ظهور الحياة؛ ذلك أن الجزيئات العضوية من التعقيد بمكان بحيث لا يمكن أبداً أن يُفسَّر تكوينُها على أنه قد حدث مصادفة، كما يستحيل تماماً لخلية عضوية أن تكون قد تكونت بمحض الصدفة.

وقد واجه دعاة التطور السؤال الخاص بأصل الحياة في الربع الثاني من القرن العشرين. وفي هذا الصدد قام داعي التطور الروسي، ألكساندر أوبارين، وهو أحد أبرز الثقات في نظرية التطور الجزيئي، بالإدلاء بالمقولة التالية في كتابه «أصل الحياة» الذي نُشر في عام 1936:

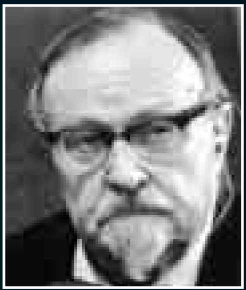
«لسوء الحظ، ما زال أصل الخلية سؤالاً يشكل -في الواقع- أكثر نقطة مظلمة في نظرية التطور بأكملها» [1].

ومنذ زمن أوبارين، أجرى دعاة التطور عدداً لا يحصى من التجارب والبحوث وسجلوا الملاحظات كي يثبتوا أن الخلية كان يمكن تكوينها بمحض الصدفة. ومع ذلك، فقد أدّت كل محاولة من هذا النوع إلى زيادة إيضاح التصميم المعقد للخلية، ومن ثَم دحضت فرضيات دعاة التطور بدرجة أكبر. ويصرح الأستاذ كلاوس دوز، رئيس معهد الكيمياء الحيوية بجامعة جوهانز جوتنبيرغ بالتالي:

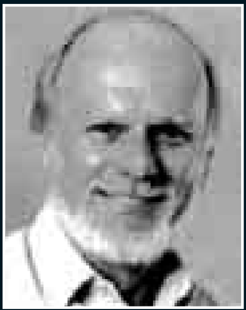
«لقد أدت أكثر من ثلاثين سنة من إجراء التجارب عن أصل الحياة في مجالات التطور الكيميائي والجزيئي إلى الوصول إلى إدراكٍ أفضل لضخامة مشكلة أصل الحياة على الأرض بدلاً من حلها. وفي الوقت الحالي، فإن المناقشات الدائرة حول نظريات وتجارب أساسية في هذا المجال إما أن تنتهي إلى طريق مسدود أو إلى اعتراف بالجهل» [2].

ويوضّح التصريح التالي من الكيميائي الجيولوجي جيفري بادا (من معهد سان دييغو سكريبس) عجز دعاة التطور أمام هذه الأزمة:

«ونحن نترك القرن العشرين اليوم، نواجه أكبر مشكلة لم يتم حلها استمرت معنا منذ دخولنا القرن العشرين؛ ألا وهي: كيف بدأت الحياة على الأرض؟» [3].



ألكسندر أوبارين: «أصل الخلية يظل لغزاً».



جيفري بادا: «نشوء الحياة على الأرض هو أكبر مشكلة لم تحل».

1 Alexander I. Oparin, *Origin of Life, (1936)* NewYork: Dover Publications, 1953 (Reprint), p.196.
2 Klaus Dose, "The Origin of Life: More Questions Than Answers", *Interdisciplinary Science Reviews, Vol* 13, No. 4, 1988, p. 348
3 Jeffrey Bada, *Earth,* February 1998, p. 40

إذا استطعت أن تحافظ على ثقتك بهذه القصة حتى الآن فلن تواجه أية مشكلة في تخمين الكيفية التي تكوّنت بها مباني المدينة الأخرى، ومصانعها، وطرقها السريعة، وأرصفتها، وبنيتها الأساسية، ونظم اتصالاتها ونقلها. وإذا كانت لديك معلومات تقنية وكنت ملماً بالموضوع بدرجة معقولة، فسوف تستطيع أن تكتب كتاباً علمياً بحتاً مكوناً من بضعة مجلدات تطرح فيه نظرياتك بخصوص العملية التطورية لنظام الصرف الصحي ومدى تماثله مع التركيبات الحالية! بل وقد يتم منحك جائزة أكاديمية تقديراً لك على كل دراساتك المستنيرة ويمكنك أن تعتبر نفسك عبقرياً يشع بنوره على البشرية!

وتدّعي نظرية التطور أن الحياة قد وُجدت بمحض الصدفة. ولا يقل هذا الادعاء سخافة عن قصتنا؛ لأن الخلية بكل نظم تشغيلها واتصالاتها ونقلها وإدارتها، لا تقل تعقيداً عن أية مدينة.

معجزة الخلية وانهيار نظرية التطور

إن التركيب المعقد للخلية الحية لم يكن معروفاً أيام دارون، وفي ذلك الوقت كان دعاة التطور يعتقدون أن إرجاع الحياة إلى المصادفات والظروف الطبيعية يعتبر أمراً مقنعاً بما فيه الكفاية.

ولكن تكنولوجيا القرن العشرين تعمّقتْ في أصغر جسيمات الحياة وكشفت أن الخلية هي أكثر النظم التي واجهتها البشرية تعقيداً. ونحن نعلم -اليوم- أن الخلية تحتوي على محطات لتوليد الطاقة تنتج الطاقة التي تستخدمها الخلية، ومصانعَ تصنع الإنزيمات والهرمونات اللازمة للحياة، وبنكَ معلوماتٍ تسجَّل فيه المعلومات الضرورية حول جميع المنتجات التي سيتم تصنيعها، ونظمَ نقلٍ وخطوطَ أنابيبٍ معقدة لحمل المواد الخام والمنتجات من مكان إلى آخر، ومختبرات ومحطاتٍ تكرير متقدمة لتحليل المواد الخام الخارجية إلى أجزائها القابلة للاستخدام، وبروتينات متخصصة تغلف أغشية الخلية لمراقبة المواد الداخلة والخارجة منها... ولا تشكل هذه الأشياء سوى جزء صغير من هذا النظام المعقد بدرجة خيالية.

ويقرّ ثورب، وهو أحد علماء التطور، بأن أبسط نوع من أنواع الخلايا يشكل آلية أعقد بكثير من أية آلة صنعها الإنسان حتى الآن، أو حتى تخيل صنعها. [91]

تعقيد الخلية

تمثل الخليةُ أكثرَ نظامٍ معقد ومصمم ببراعة سبق للإنسان مشاهدته. ويشرح أستاذ البيولوجيا، مايكل دنتون، في كتابه «التطور: نظرية في أزمة» هذا التعقيد بمثال:

«كي نفهم حقيقة الحياة على النحو الذي كشفه علم البيولوجيا الجزيئية يجب علينا أن نكبّر الخلية ألف مليون مرة حتى يبلغ قطرها 20 … مثل لندن

وقس على ذلك بالنّسبة إلى بقية الحواس. فما نتلقاه عن طريق الصّوت واللّمس والتذوق والشمّ ينتقل إلى المخ في شكل إشارات كهربائية، ويتم إدراكه في المركز الخاص بكل من هذه الحواس.

وعمليّة السّمع هي أيضا كذلك، فالأذن الخارجيّة تجمع الموجات الصّوتية المحيطة بها وتوصلها إلى الأذن الوسطى. وهكذا فالأذن الخارجيّة تلتقط الأصوات بواسطة غشائها الخارجي وتنقلها إلى الأذن الوسطى، ثم تنقل الأذن الوسطى الذبذبات الصوتية التي تلقتها إلى الأذن الداخلية، وتقوم الأذن الدّاخلية بتحويل هذه الذبذبات إلى إشارات كهربائية ثم ترسلها إلى المخ. وكما يتم الإبصار في مركز الإبصار في المخ، تتم عملية السّمع في مركز السمع بالمخ كذلك. والمخّ معزول عن مصدر الصّوت الخارجي تماماً مثلما هو معزول عن مصدر الضوء الخارجي. فمهما كانت شدّة الضوضاء في الخارج، يظل المخّ من الداخل هادئًا تماما.

ومع ذلك، فحتّى أدقّ الأصوات يستطيع المخّ تمييزها. وهذا يعنى تحديدا أن أذن الإنسان السليم تسمع كلّ الأصوات بوضوح دون أي تشويش أو تداخل. فعن طريق مركز السّمع بالمخ، وعلى الرّغم من أنّ هذا المركز معزول عن كلّ مصدر صوت خارجي، فإنكم تستمعون



كل الصور التي نراها في حياتنا تتشكل في جزء من المخ يسمى مركز الإبصار، ويوجد في مؤخرة المخ، وهو يشغل بضعة سنتمترات مكعبة فقط من حجم المخ . إن كلاًّ من الكتاب الذي تقرأه بين يديك الآن والمناظر الطبيعية اللامتناهية التي تراها

عندما تتأمل الأفق تتكيف مع هذا الحيز المتناهي في الصغر، لهذا السبب فنحن لا نرى الأجسام في حجمها الحقيقي الموجود في الخارج، وإنما نراها في الحجم الذي يدركه المخ.

إلى سيمفونيات تعزفها الأوركسترا، وتسمعون الضّوضاء في الزّحام، وتسمعون كلّ الأصوات الأخرى ذات الترددات المختلفة بدءا من حفيف ورق الأشجار وانتهاء بهدير الطائرة النّفاثة. ولكن لو حاولنا قياس شدّة الصّوت داخل المخ بأحد الأجهزة الدقيقة- في هذه اللحظات التي نستمع فيها بالفعل إلى الأصوات الخارجية- لوجدنا أنّ الصمت المطبق هو الذي يسود داخل المخ.

إنّ إدراكنا للروائح التي نستنشقها يتحقق بنفس الطريقة. فالذّرات المتطايرة من أشياء مثل الفانيليا أو زهرةٍ ما تصل إلى المستقبلات التي تقع على الشعيرات الدقيقة متناهية الصّغر في منطقة تجويف الأنف، ثم يحدث لها ما يشبه التفاعل. هذا التفاعل ينتقل إلى المخ على شكل إشارات كهربائية، يتلقاها المخ على هيئة رائحة. فكل ما نستنشقه من روائح- طيبة كانت أو كريهة- هو عبارة عن تلقي المخ للتفاعلات التي تجرى على الذّرات الصغيرة المتطايرة بعد أن تكون قد تحولت إلى إشارات كهربائية. فنحن نستقبل رائحة العطور والزهور ورائحة الطّعام الذي نحبه ورائحة البحر وكلّ الروائح الأخرى التي نحبها أو لا نحبّها عن طريق المخ. وكما هو الحال بالنسبة إلى حاسّة السّمع والإبصار، فإنّ الذّرات المتطايرة لا تصل إلى المخ أبدا. أما الذي يصل إلى المخ فهو مجرّد إشارات كهربائية. وبمعنى آخر، إنّ كلّ الروائح التي نفترض، منذ ولادتنا، أنها تصدر من الأجسام الخارجية، ما هي إلا إشارات كهربائية نشعر بها من خلال حواسّنا العضوية.

وما سبق يسرى بالمثل على حاسّة التذوق. فهناك أربعة أنواع مختلفة من المستقبلات الكيمائيّة، تقع على الجزء الأمامي من لسان الإنسان وهي المسؤولة عن التعرف على المذاق المالح والحلو والمر والحامض. تقوم هذه المستقبلات بتحويل المذاقات- بعد أن تمرّ بعدة عمليات كيميائية- إلى إشارات كهربائية وترسلها إلى المخّ، وهذه الإشارات يستقبلها المخ على أنها مذاقات مختلفة. فالمذاق الذي نستشعره من تناول قطعة شيكولاتة أو ثمرة فاكهة هو تفسير المخّ لهذه الإشارات الكهربائية. ونحن لا نصل إطلاقا إلى الجسم الموجود بالخارج، إذ إننا لا نرى أو نشم أو نتذوق الشّيكولاتة ذاتها. وعلى سبيل المثال، إذا انقطعت أعصاب التذوق الموصلة للمخ، لن يدرك المخ أو يستشعر أي مذاق لما تأكله، وستفقد حاسّة التذوق تماما.

وهنا تظهر لنا حقيقة أخرى، وهي أنه لا يمكن التأكّد من أنّ ما نشعر به عند تناولنا طعاما

معينا هو نفس ما يشعر به شخص آخر عند تناوله الطّعام نفسه، أو أنّ ما نتلقاه من مؤثّرات عند سماع صوت ما هو نفس ما يتلقاه شخص آخر من مؤثرات عند سماع الصّوت نفسه. وعن هذه الحقيقة، يقول "لينكولن بارنت" ما يلي:

"نحن لا نستطيع أن نحدّد ما إذا كان ما يراه شخص ما من لون أحمر، أو ما يسمعه من نغمة مثل (دو) الموسيقية، هو نفسه ما يراه غيره ويسمعه. لا يمكن لأحد أن يتأكّد من ذلك أبدا".(176)

ولا تختلف حاسّة اللمس كثيرا عن بقية الحواس التي تناولناها. فعندما نلمس جسما ما، فإنّ كل المعلومات التي ستساعدنا على تمييز العالم الخارجي المحيط بنا وما به من أجسام، ستنتقل إلى المخ عن طريق الأعصاب الحسّية الموجودة على الجلد. فالشعور بلمس شيء ما يتكون داخل المخ. فعلى عكس الاعتقاد الشائع، نحن لا ندرك الشّيء عندما نلمسه بأطراف أيدينا أو عن طريق الجلد، بل إنّ عملية اللمس تتم في مركز الإحساس داخل المخ. وكنتيجة لتقدير المخ للتنبيهات الكهربائية التي تنطلق من جسم ما، نشعر بأحاسيس مختلفة ترتبط بما نلمسه من أجسام، مثل الصّلابة أو النّعومة، والسخونة أو البرودة، فنحن نستمدّ جميع المعلومات التي تساعدنا على تمييز جسم ما بعينه من خلال هذه التنبيهات. وعن هذه الحقيقة المهمّة أيضا، كتب اثنان من مشاهير الفلاسفة "ب. راسيل، و ل. ويتجينستين" (B. Russel & L. Wittgeinstein) آراءهما كما يلي:

"لا يمكن مناقشة قضية وجود ثمرة اللّيمون من عدمه وكيف وُجدت هذه الثمرة، فالليمون عبارة عما نتذوقه من طعم باللّسان، وما نشمه من رائحة بالأنف، وما نراه من لون وشكل بالعين، وهذه الصّفات فقط هي التي يمكن أن تخضع للدراسة والتقييم، فالعلم لا يمكن أن يدرك حقيقة العالم ويعرفها".(177)

يستحيل على العقل البشرى أن يصل إلى الحقيقة المادية للعالم. فكل الأشياء التي حولنا هي عبارة عن مجموعة من المؤثرات التي ندركها بواسطة حواسنا كالإبصار والسمع واللمس. وعن طريق تحليل البيانات التي يتلقاها مركز الإبصار وغيره من مراكز الإحساس في المخ، يواجه المخ، خلال مراحل حياتنا المختلفة، الصورة التي تكوَّنت داخله للأجسام المادية، وليس هذه الأجسام ذاتها. وهنا يضل الإنسان بافتراضه أنّ هذه الصّور أو النّسخ هي أمثلة لمادة حقيقيّة موجودة خارجنا.

نتيجة للتنبيهات الاصطناعية، فإنه يمكن أن يتشكل في المخ عالم مادي له درجة الصّدق نفسها والواقعية نفسها للعالم الذي نعرفه، وذلك دون أن يكون موجودًا. ونتيجة للتنبيهات الاصطناعية، فإنه يمكن أن يعتقد الشخص أنه يقود سيارته، بينما هو في الحقيقة جالس في منزله.



″العالم الخارجي″ كما يتشكّل في عقولنا

إنّ الحقائق المادية التي بيناها حتى الآن تقودنا إلى النتيجة التالية: إنّ ما نراه ونلمسه ونسمعه وندركه بوصفه ″المادة، ″والعالم″ و″الكون″ بأسره هو عبارة عن إشارات كهربائية يتلقاها المخ.

إنّ الشخص الذي يتناول فاكهةً ما لا يواجه في الحقيقة الفاكهة بعينها، بل الصّورة التي يدركها المخ لها. فالجسم الذي يمثل ″الفاكهة″ بالنسبة إلى شخص ما يتكون من إشارات كهربائية خاصة بشكل هذه الفاكهة ومذاقها ورائحتها. فإذا تم قطع العصب البصري الذي يمتد إلى المخ فجأة، فإنّ صورة الفاكهة ستختفي فجأة أيضا. وكذلك لو انقطع الاتصال بين الأعصاب الممتدة من أجهزة الإحساس في الأنف إلى المخ، فسيؤدّى ذلك إلى انعدام حاسة الشم تماما. وبعبارة بسيطة، إن صورة الفاكهة ليست إلاّ تفسير المخ للإشارات الكهربائية.

الأمر الآخر الذي لابد أن نتوقف عنده هو الإحساس بالمسافة، فالمسافة بينك وبين هذا الكتاب على سبيل المثال هي ذلك الشعور بالفراغ الذي يتكون في المخ، فالأجسام التي يظنها المرء بعيدة عنه توجد أيضا داخل مخه. فمثلا،عندما يراقب الإنسان النجوم في السماء، يظن أنها تبعد عنه ملايين السنين الضوئية، ولكن ما ″يراه″ من نجوم يوجد أيضا داخل المخ في مركز

الإبصار. وبينما تقرؤون هذه الأسطر، لستم- كما تظنون- داخل الغرفة التي تجلسون فيها، بل إن الغرفة هي التي توجد داخلكم، ولكن لأنكم تستطيعون رؤية أجسامكم، فإنكم تظنون أنكم بداخل الغرفة. ومع ذلك، فإن عليكم أن تتذكروا أنّ أجسامكم هي أيضا صور تكونت داخل أمخاخكم.

وما سبق ينطبق على بقية الحواس. فعندما تظن أنك تسمع صوت التليفزيون في الحجرة المجاورة، فإنك في الواقع تسمع الصوت الذي يوجد داخل مخك وتتفاعل معه. فلا يمكنك إثبات وجود غرفة مجاورة لك، ولا أنّ هناك صوتًا يصدر من تليفزيون بداخلها. فالصوت الذي تسمعه على بعد أمتار منك والمحادثة التي يجريها شخص مع آخر بالقرب منك، كلاهما يتكون داخل بقعة صغيرة لا تتعدى بضعة سنتيمترات مربعة هي مركز السّمع بالمخ. وبدون مركز الإدراك الحسي هذا ، فلا يوجد ما يسمّى باتجاه اليمين أو اليسار أو الأمام أو الخلف، أي أن الصّوت لا يأتي من أيّ من هذه الاتجاهات أو حتى من الهواء؛ فالاتجاهات ذاتها لا وجود لها.

وكذلك الروائح التي نشمها، فنحن لا نشم هذه الروائح عن بعد، بل نعتقد أن ما يصل إلينا في النهاية عن طريق مركز الشم في المخ هو رائحة الأجسام الموجودة في الخارج. ومع ذلك، فكما أن صورة الزهرة تتكون داخل مركز الإبصار، فإن رائحة هذه الزهرة كذلك تتكون داخل مركز الشم في المخ. فلا وجود في العالم الخارجي للزهرة ولا لرائحتها.



إن معطيات الفيزياء الحديثة أيضا تؤيد أن الكون المادي ما هو إلا مجموعة من مدركات الحواس. مجلة (نيو سايتنيست) الأمريكية المعروفة قد تناولت هذه الحقيقة في عددها المؤرخ في 30 يناير 1999. وكان موضوع الغلاف السؤال التالي: "ماذا وراء الحقيقة: هل الكون بالفعل عبارة عن هزل من المعلومات الأولية وهل المادة مجرد سراب فقط؟"

إن "العالم الخارجي" الذي ندركه بحواسنا ما هو إلا "الإشارات الكهربائية" التي تصل إلى المخ. وعلى مدار حياتنا، تخضع هذه الإشارات لعمليات مختلفة في المخ، فنحيا دون أن ندرك الخطأ الذي وقعنا فيه بافتراض أن ما نراه هو أصل المادة التي يتكون منها "العالم الخارجي". وقد ضللنا لأننا لا يمكن أن نصل إلى المادة ذاتها بحواسنا.

إنّ المخ هو المسؤول عن التفسير وإعطاء معنى

للإشارات التي نفترض أنها هي "العالم الخارجي". ولنأخذ على سبيل المثال حاسة السمع: إن المخ في حقيقة الأمر هو الذي يحول الموجات الصوتية في "العالم الخارجي" إلى سيمفونية، أي أنّ الموسيقى هي نوع من المدركات الحسية التي يوجدها المخ. وبنفس الطريقة، فعندما نرى ألوانا مختلفة، فإنّ ما يصل إلى أعيننا هو مجرد إشارات كهربائية مختلفة الطول الموجي، والمخ هو الذي يحول هذه الإشارات إلى ألوان. فلا توجد أي ألوان في "العالم الخارجي". فلا التفاحة لونها أحمر، ولا السّماء لونها أزرق ولا الأشجار لونها أخضر. فهي تبدو بألوانها هذه لأننا نستقبلها بهذا الشكل. إنّ "العالم الخارجي" يعتمد كليا على وسيلة الإدراك.

وقد يؤدى خلل بسيط في شبكية العين إلى إصابتها بعمى الألوان، فيرى بعض الناس اللون الأزرق على أنه لون أخضر، ويرى البعض الآخر اللون الأحمر أزرق، ويرى آخرون الألوان كلها كدرجات مختلفة من لون واحد فقط هو الرمادي، وفى هذه المرحلة لا يهم كثيرا ما إذا كان الجسم الخارجي ملونا بالفعل أم لا.

ويناقش المفكر المعروف "بيركلي" Berkeley هذه الحقيقة بقوله:

"في بداية الأمر كان الاعتقاد الشائع هو أن الألوان والروائح ... "توجد بالفعل" في العالم الخارجي، ولكن وجهات النظر هذه تم التخلي عنها فيما بعد، فقد ثبت أن وجودها إنما هو متوقِّف على إحساساتنا". (178)

والنتيجة التي نخلُص إليها هي أننا لا نرى الأجسام ملونة لأن لها لونها الخاص بها أو لأن لها وجودها المادي المستقل في العالم الخارجي. إن حقيقة المادة هي أن كل الصفات التي نضفيها على الأشياء والأجسام إنما توجد بداخلنا فقط وليس في "العالم الخارجي".

وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي يبقَى إذن من "العالم الخارجي"؟

ألا مفرّ من وجود "العالم الخارجي"؟

لقد تكرّر حديثنا حتى الآن عن "عالم خارجي" وعن عالم من الإدراكات يتشكل داخل عقولنا، وهو العالم الذي نراه. لكن مادمنا لن نصل أبدا إلى "العالم الخارجي"، فكيف نتأكد أن عالَماً كهذا يوجد بالفعل؟

في واقع الأمر ليس بإمكاننا أن نتأكد، فما دامت كل الأجسام التي نراها هي مجموعة

من الإدراكات الحسية التي لا توجد إلا في الأذهان، فإنه يصبح أكثر دقةً أن نقول إن العالم الوحيد الموجود هو عالم الإدراكات الحسية. العالم الوحيد الذي نعرفه هو الذي يتشكل داخل المخ، وهذا هو العالم الوحيد الذي نحن على يقين من وجوده.

إننا لا نستطيع إثبات أن ما ندركه داخل عقولنا له أصل مادي، فهذه الإدراكات يمكن أن يكون مصدرها وهميا.

ويمكن لنا أن نلاحظ ما يلي: إن التنبيهات الوهمية يمكن أن تخلق داخل عقولنا صورة خيالية تماما للعالم المادي. ولنأخذ المثال التالي: فلنتخيل جهاز تسجيل حديثا يمكنه التقاط جميع الإشارات الكهربائية وتسجيلها، وليكن أول ما نقوم به هو نقل جميع البيانات المتعلقة بموقف معين (وليكن جسدك أحد عناصر هذا الموقف) إلى جهاز التسجيل هذا بتحويل هذه البيانات إلى إشارات كهربائية. وثانيا، فلنتخيل معا أن بإمكان مخك أن يحيا خارج الجسد، وأخيرا، فلنربط بين جهاز التسجيل والمخ (المفترض وجوده خارج جسدك) عن طريق موصلات كهربائية (تقوم بوظيفة الأعصاب)، ثم نرسل الإشارات التي سبق تسجيلها إلى المخ. إن الشعور الذي سينتابك في هذه الحالة هو أنك تعيش في موقف "صنعته" أنت بنفسك، ويصبح من السهل أن تصدق أنك تقود سيارتك على الطريق السّريع. ويصعب عليك إدراك أنك لا تتكون من شيء سوى مخك لأنّ تكوين عالم داخل عقلك لا يتطلب وجود هذا العالم بالفعل بل يتطلب فقط وجود تنبيهات، ومن الممكن تماماً أن يكون مصدر التنبيهات "مصطنعا" مثل جهاز التسجيل في المثال السابق.

وعن هذا يقول العالم والفيلسوف الكبير "برتراند راسيل (Bertrand Russel):

"أما ما نشعر به عندما نضغط بأطراف أصابعنا على طاولة ما، فهو يرجع إلى الاضطراب الكهربائي الذي يحدث في الإلكترونات والبروتونات الموجودة في أطراف أصابعنا، وطبقا لعلم الفيزياء الحديث، فإنه يحدث بسبب تقارب الإلكترونات والبروتونات الموجودة على الطاولة. ولو أن هذا الاضطراب الكهربائي نفسه الذي حدث في أطراف أصابعنا قد حدث بأي أسلوب مختلف، لشعرنا بالشعور نفسه ولو لم تلمس أصابعنا سطح أي طاولة".[179]

نعم، من السّهولة بمكان أن ننخدع فنعتبر الإدراكات الحسية التي ليس لها أي صلة مادية بالواقع أشياء حقيقية. ففي أحلامنا يحدث كثيرا أن نرى أحداثا وأناسا وأشياء ومواقف تبدو

لنا واقعية تماما، ولكنها في الحقيقة ليست سوى إحساسات تدركها المراكز الحسية بالمخ لا أكثر. فليس هناك فرق جوهري بين الأحلام و"العالم الخارجي الواقعي"، فكل منهما نشهده في العقل.

من الْمُدرك؟

مما ناقشناه حتى الآن، يتضح بلا شك أن العالم الذي نظن أننا نعيش فيه أو ما نطلق عليه "العالم الخارجي" لا يوجد إلا في عقولنا فقط. وهنا يظهر سؤال على قدر كبير من الأهمية، فإذا كانت جميع الأحداث المادية التي نعرفها ما هي إلا إدراكات حسية داخل المخ، فماذا عن المخ ذاته؟ فبما أن المخ جزء من العالم المادي شأنه شأن الذراع والقدم وأي جزء آخر، فإنه يجب أن يكون كذلك مجرد إدراك حسي مثل بقية الأجسام الأخرى تماما.

ولنأخذ من الأحلام مثالا لإلقاء مزيد من الضوء على الموضوع. فإذا كنا نحلم بهذه الطريقة، فسيخيل إلينا أن لدينا ذراعاً وبدناً وعيناً ومخاً، وإذا ما سألَك شخص ما أثناء الحلم "أين ترى؟" لأجبته: "إنني أرى في مخي". ومع ذلك، فإنه لا يوجد أي مخ مما نتحدث عنه. كل ما هنالك بدن خيالي ورأس خيالي ومخ خيالي. أما الكائن الذي يرى هذه الصور الخيالية فهو ليس "المخ الخيالي" الذي نراه في الحلم، ولكنه كائن آخر أرقى بكثير.

نحن نعلم أنه لا يوجد فرق جوهري بين الوضع الذي نكون فيه أثناء الحلم والوضع الذي نطلق عليه الحياة الواقعية التي نعيشها. لذالك فعندما تُسأل السؤال السابق ("أين ترى") في الوضع الذي نطلق عليه الحياة الواقعية، فإن الإجابة بـ "في مخي" تكون لا معنى لها تماماً مثلما رأينا أنها لا معنى لها في المثال السابق. ففي كلتا الحالتين، فإن الذي يرى ويدرك ليس هو المخ، الذي لا يعدو كونه قطعةً من اللحم لا حياة فيها.

وإذا ما قمنا بتحليل المخ، فسنجد أنه لا يوجد به إلا دهون وبروتينات، وهذه المكونات نفسها توجد في كثير من الأعضاء الحيّة الأخرى، أي أنه لا يوجد في قطعة اللحم التي نطلق عليها "المخ" ما يجعلنا نرى صورا مختلفة، أو يشكل لدينا الوعي، أو يوجِد لدى كل منا الكيان الذي يسميه "أنا".

ويشير "ر. ل. جريجوري" (R.L. Gregory) إلى الخطأ الذي يقع فيه الناس فيما يتعلق بإد د

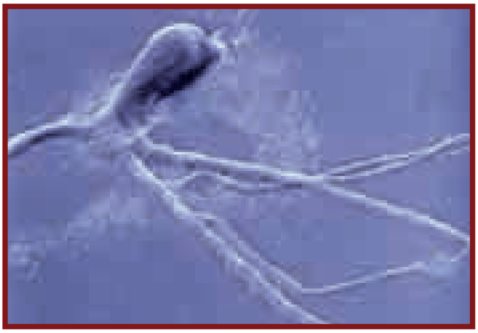
راك الصور في المخ:

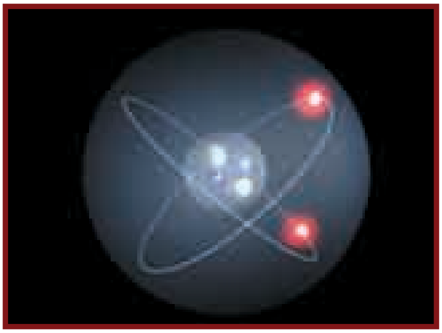
"يجب أن نتجنب الإغراء الذي يقودنا إلى القول بأن العين تكوّن الصور داخل المخ. ووجود صورة في المخ يتطلب ما يشبه العين الداخلية لرؤيته، مما يتطلب عينا أخرى لرؤية الصورة. وهكذا دواليك... عدد لا نهائي من الأعين والصور، مما يجعل الأمر يبدو سخيفا للغاية".[180] هذه هي النقطة الرئيسية التي تضع الماديين، الذين لا يؤمنون بوجود شيء غير المادة، في مأزق: فلمن تكون "العين الداخلية" التي ترى وتدرك ما ترى وتستجيب له ؟

وقد ركز "كارل بريبرام" (Karl Pribram) على هذا السؤال الهام في العلوم والفلسفة، وهو ماهية المدرِك:

"منذ عهد اليونانيين، والفلاسفة يفكرون عن "الشبح الموجود داخل الآلة"، و "الإنسان الصغير الموجود داخل الإنسان الصغير"، إلخ. ويطرحون ذلك السؤال: "أين أوجد أنا"؟ الشخص الذي يستخدم عقله؟ من هو ذلك الكائن الذي يدرك ويعرف؟ فكما يقول القديس فرنسيس من "أسِّيسي" (Saint Francis of Assisi): "إن ما نبحث عنه هو الكائن الذي يرى".[181]

والآن فكر في هذا: الكتاب الذي تقرؤه والحجرة التي تجلس فيها، وباختصار كل الصّور التي أمامك تراها داخل مخك. فهل الذرات إذن هي التي ترى هذه الصّور؟ وهي ذرات عمياء، صماء، لا وعي لها ولا إدراك ... ولماذا اكتسبت بعض الذرات هذه الخاصية ولم تكتسبها غيرها من الذرات؟ وهل كل ما نفعله من تفكير، وفهم وإدراك وتذكر وشعور بالسعادة أو الحزن يتكون من تفاعلات كهربائية ميكانيكية بين هذه الذرات؟





المخ عبارة عن مجموعة ضخمة من الخلايا المكوَّنة من بروتين وجزيئات دهنية، وهو مكوَّن من خلايا عصبية. ولا توجد قدرة في هذه القطعة من اللحم لكي تشاهد الصور، أو لتؤلف شعورا أو وعيا، أو لتخلق فينا ما نسميه "نفسي".

وعندما نفكر في هذه الأسئلة نجد أنه من غير المجدي أن نحاول البحث عن الإرادة في الذرات. فمن الواضح أن الكائن الذي يرى ويسمع ويشعر هو كائن أرقى من المادة بكثير. هذا الكائن هو كائن ″حي″ وليس مجرد مادة أو صورة لمادة. وهذا الكائن يربط بين المدركات الحسية التي أمامه مستخدما صورة جسده.

هذا الكائن هو ″الروح″

إن هذه الإدراكات الحسية، التي نطلق عليها مجتمعةً ″العالم المادي″، هي عبارة عن حلم تعيشه هذه الروح. فكما أن الجسد الذي نملكه والعالم المادي الذي نراه في أحلامنا لا وجود لهما في الواقع، كذلك الكون الذي نشغله ونوجد فيه والجسد الذي نملكه ليس لهما حقيقة مادية.

إن الكائن الحقيقي الوحيد الموجود هو الروح، أما المادة فليست سوى إدراكات حسية تراها الروح. فالكائن الأرقى والأذكى الذي يكتب ويقرأ هذه السطور ليس مجرد ركام من الذرات والجزيئات ومجموعة من التفاعلات الكيميائية التي تتم بينها. إن هذا الكائن هو ″الروح″.

الكائن المطلق الحقيقي

إنّ كل هذه الحقائق تضعنا أمام سؤال آخر في غاية الأهمية. إذا كان ما نعرفه عن العالم المادي يتكون من بضعة إدراكات حسية نراها بأرواحنا، فما هو مصدر هذه الإدراكات؟

وعند إجابتنا على هذا السؤال يجب أن نأخذ الحقائق التالية في الاعتبار: إن المادة ليس لها كيان ذاتي مستقل، وما دامت المادة عبارة عن إدراك فحسب، فهي إذن شيء ″مصطنع″. ومعنى هذا أنه لا بد أن يكون مصدر هذا الإدراك قوة أخرى، أي أنه لابد أن يكون قد خُلق. إضافة إلى هذا، فإن عملية الخلق يجب أن تكون مستمرة، فإذا لم تكن كذلك، فإن ما نطلق عليه المادة سوف يختفي. ويمكن تشبيه ذلك بالصورة التي تظل ظاهرة على شاشة التليفزيون طالما استمر البث التلفزيوني. فمن إذن الذي يجعلنا ندرك ونبصر بأرواحنا النجوم والأرض والنبات والأ شخاص وأجسامنا وكل ما نراه بخلاف ذلك؟

يتضح إذن ضرورة وجود خالق عظيم، خلق الكون المادي بأسره، الذي يتكون من

مجموع الإدراكات الحسية، ويستمر في عملية الخلق إلى ما يشاء. وحيث إن هذا الخالق يظهر لنا تلك الأدلة الرائعة على الخلق، فهو إذن ذو قوة أبدية وقدرة على كل شيء. إن هذا الخالق العظيم يُعرّفنا بنفسه. فقد أرسل إلينا كتاباً منزَلا، وفي ذلك الكتاب وصف نفسه، سبحانه وتعالى، ووصف الكون، وبين لنا سبب وجودنا.

هذا الخالق هو الله سبحانه وتعالى، وكتابه هو القرآن الكريم.

إن حقيقة عدم استقرار السماوات والأرض وعدم ثباتها ،أي الكون، وأن وجودهما ممكن فقط لأن الله قد خلقهما وأن هذا الكون سيختفي عندما يشاء العليّ العزيز إنهاء خلقه، يأتي في سياق الآيات القرآنية الكريمة التالية:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (سورة فاطر، الآية 41).

وكما سبق أن ذكرنا في البداية، فإن بعض الناس لا يدركون الله إدراكا حقيقيا ويتخيلونه كائنا موجودا في مكان ما في السماوات ولا يتدخل في شؤون الدنيا. وأساس هذا الاعتقاد هو أن هذا الكون عبارة عن مجموعة من المكونات المادية وأن الله يوجد في مكان ما خارج هذا العالم المادي، بل في مكان يبعد عنه كثيرا. ويظهر ذلك في بعض الأديان الأخرى التي تقصر الإيمان بالله على هذا الاعتقاد.

ولكن المادة، كما بيّنا، تتكون من مشاعر وأحاسيس فقط. والكائن المطلق الحقيقي الوحيد هو الله سبحانه وتعالى. ومعنى ذلك أن الله وحده هو الموجود ولا أحد سواه: وأن كل ما عداه موجود كالظّلال. وبالتالي يستحيل تصوّر أن الله كائن مستقل يوجد خارج هذه الكتلة المادية بأسرها. فالله سبحانه وتعالى موجود في "كل مكان" ويسع ملكه كل شيء. ويوضح القرآن هذه الحقيقة كما يلي:

﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (سورة البقرة– آية الكرسي 255).

أما حقيقة كون الله مُنزّها عن المكان ومحيطا بكل شيء، فيوضحها الله لنا في آية أخرى بقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة– الآية 115).

ومادامت الكائنات المادية مجرد إدراكات حسية، فهي إذن لا يمكن أن ترى الله. غير أن الله يرى المادة التي خلقها بجميع أشكالها. ويوضح القرآن هذه الحقيقة بقوله:

﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (سورة الأنعام – الآية 103)

إن أبصارنا لا يمكن أن تدرك الله ولكن الله محيط بما في صدورنا ويعلم ما تسرّه أنفسنا ويعلم إلى أين تتجه أنظارنا وأفكارنا. فنحن لا نتفوه بكلمة دون علمه. بل ولا نتنفس دون مشيئته.

وبينما نحن نعيش عالم المحسوسات هذا، فإن أقرب الكائنات إلينا ليس هو أحد هذه المحسوسات، بل هو الله سبحانه وتعالى. والآية القرآنية التالية تؤكد هذه الحقيقة:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (سورة ق – الآية 16).

ولكن عندما يعتقد الإنسان أن جسده مصنوع من "مادة"، لا يستطيع أن يتفهم أو يدرك هذه الحقيقة الهامة. وإذا اعتقد أن مخه هو الذي يمثله هو "نفسه"، فإن المكان الذي يمثل بالنسبة إليه العالم الخارجي سيصبح على بعد 20 – 30 سم منه. ولكنه إذا ما أدرك أنه لا يوجد ما يسمى مادة، وأن كل الموجودات حوله مجرد خيال، فإن مفاهيم من قبيل الخارج والداخل والقرب تفقد معناها. إن الله هو المحيط بالإنسان "والأقرب له" من حبل الوريد.

ويخبر الله تعالى البشر بهذا القرب المطلق في الآية التالية:﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (سورة البقرة – الآية 186). والتعبير القرآني في آية أخرى: ﴿ ... إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ...﴾ (سورة الإسراء – الآية 60) يؤكد الحقيقة نفسها.

يخطئ الإنسان عندما يظن أنه أقرب مخلوق إلى نفسه. فالله أقرب إلينا من أنفسنا. يقول الله عزّ وجلّ:



إذا تأمل الإنسان بعمق كل ما هو معروض في هذه الصورة، فسرعان ما سيدرك بنفسه هذا الوضع المدهش الاستثنائي: وهو أن كل الأحداث في العالم ليست سوى مجرّد تخيل....

﴿**فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتْ الْحُلْقُومَ. وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لا تُبْصِرُونَ**﴾ (سورة الواقعة- الآيات 83-85). لكن كما هو واضح في الآية القرآنية، لا يشعر الناس بهذه الحقيقة المذهلة لأنهم لا يرونها بأعينهم.

ومن ناحية أخرى، لا يمكن للإنسان الذي ليس سوى كائن كالظّل، أن يكون ذا إرادة مستقلة عن الله. والآية التالية تبين أن كل مل نقوم به وكل ما نمر به هو تحت سيطرة الله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُون**﴾ (سورة الصافات – الآية 96). والقرآن الكريم يبين هذه الحقيقة في الآية التالية أيضا: ﴿**...وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى...**﴾ (سورة الأنفال – الآية 17). وهذه الآية تدل على أن أي فعل يقوم به الإنسان هو بأمر الله. فالإنسان لا يستطيع أن يقوم بفعل الرمي بنفسه لأنه كائن كالظل. فالله سبحانه وتعالى يبث في الإنسان شعوره بنفسه. فالله هو الذي يفعل كل شيء، ولذلك، فإذا ظنّ المرء أنه يفعل أي شيء بإرادته، فمن الواضح أنه يعمد إلى خداع نفسه .

إن هذه هي الحقيقة، ولكن الإنسان قد لا يود التسليم بهذه الحقيقة فيظن أنه كائن مستقل بذاته عن إرادة الله، ولكن هذا لا يغير من حقيقة الأمر شيئا. فحتى إنكار الإنسان لهذه الحقيقة هو بإرادة ومشيئة الله تعالى.

كل ما يمتلكه الإنسان وهم وخيال

وكما يتضح لنا، فإن من الحقائق العلمية والمنطقية أن "العالم الخارجي" ليس له أصل ماديّ وإنما هو مجموعة من الصور التي يبثها الله باستمرار لأرواحنا كي تراها. ومع ذلك، فالناس لا يضعون عادةً كل شيء تحت هذا المفهوم، أو بالأحرى فهم لا يريدون ذلك.

ولكنك إذا ما أمعنت التفكير بصدق وجرأة في هذه المسألة، فستجد أن منزلك وما به من أثاث، وسيارتك التي ربما اشتريتها حديثا، ومكتبك ومجوهراتك وحسابك في البنك، وخزانة ملابسك وزوجتك وأطفالك وزملاءك... كل هؤلاء ما هم إلا جزء من العالم الخارجي الخيالي الذي يظهر لك. وكل ما تراه وتسمعه وتشمه- باختصار كل ما تدركه بحواسك الخمس- هو جزء من هذا العالم الخيالي: صوت مغنيك المفضل، وصلابة المقعد الذي تجلس عليه، والعطر الذي تضعه، والشمس التي تدفئك بأشعتها والزهرة بألوانها الجميلة، والطائر الذي يطير أمام نافذتك، والقارب الذي يبحر سريعا في المياه، وحديقتك الخصبة والكمبيوتر الذي تستخدمه في عملك، أو جهاز التسجيل الحديث...

وهذا هو الواقع لأن العالم الذي يتكون من هذه الصور لم يُخلق إلا لاختبار البشر. وهم يخضعون للاختبار على مدار حياتهم القصيرة بصورة غير حقيقية. وهذه الصور قدمت للبشر في شكل جميل وجذاب، وكان ذلك مقصودا. وقد ذكر الله هذه الحقيقة في القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾

(سورة آل عمران – الآية 14).

إن معظم الناس ينحّون دينهم جانبا، ويهتمون أكثر بما يمتلكون وبالغنى وتخزين الذهب والفضة والأموال والمجوهرات وحسابات البنوك والبطاقات الائتمانية والدواليب

المكدسة بالملابس وامتلاك أحدث السيارات، وباختصار، فهم يفضلون كل أشكال الرفاهية التي يمتلكونها أو التي يسعون جاهدين لامتلاكها ويركزون على هذا العالم فقط وينسون الآ خرة. إنهم ينخدعون بزخرف الحياة الدنيا وزينتها وينسون الصلاة والإحسان إلى الفقراء وأدد اء العبادات التي ستقودهم إلى الفوز في الآخرة، وهم يبررون ذلك بقول مثل: "إن لدي ما أفعله الآن"، "لدي الكثير من المسؤوليات"، و"ليس لدي وقت كافٍ لأفعل ذلك"، "يتعين علي إنهاء بعض الأعمال"، "سألتزم بالصلاة والزكاة مستقبلا". وهم يستهلكون حياتهم بمحاولتهم التمتع في الحياة الدنيا فقط. والآية القرآنية التالية تصف خلط الإنسان للمفاهيم على النحو الذي أشرنا إليه: ﴿**يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ**﴾ (**سورة** الروم - الآية 7).

إنّ الحقيقة التي سقناها في هذا الفصل - والتي تتمثل في أن كل شيء ليس سوى صورة - على قدر كبير من الأهمية لأنها تعني أن كل الرغبات والحدود لا معنى لها. وإثبات هذه الحقيقة يعني بوضوح أن كل شيء يمتلكه الإنسان ويسعى لامتلاكه، مثل الثروة التي كونها بجشعه وذريته التي يزهو بها، وزوجته التي يدعي أنها الأقرب إلى نفسه، وأصدقائه المقربين ومنصبه الذي يمده بالقوة والفخر، والمدارس التي درس بها والعطلات التي قضاها، كل هذا ما هو إلا وهم وخيال. ولذلك فإن كل الجهود التي يبذلونها والوقت الذي يستنزفونه والجشع الذي يعمي أعينهم سيذهب هباء منثورا.

إنّ بعض الناس يظهرون جهلهم دون وعي منهم، عندما يتباهون بغناهم وثرائهم أو ممتلكاتهم من "اليخوت والطائرات الهليوكوبتر الخاصة والمصانع والشركات والمنازل والعقارات"، وكأن كل هذه الأشياء توجد بالفعل. فهؤلاء الأثرياء الذين يتباهون بطريقة تلفت الأنظار في يخوتهم وسياراتهم ولا يكلون من الحديث عن ثرواتهم، ويعتقدون أن مناصبهم تجعلهم فوق سائر البشر ويظنون أن نجاحهم يرجع لكل هذه الأشياء فقط، يجب عليهم التفكير مليا في الحالة التي سيصبحون عليها عندما يكتشفون أن نجاحهم هذا ما هو إلا وهم وخيال.

ونحن في واقع الأمر نشاهد ذلك في الأحلام كثيرا. ففي أحلامهم، يمتلك الناس أيضا منازل فخمة، وسيارات سريعة ومجوهرات ثمينة جدا ورزم الدولارات وأكواما مكومة من

الذهب والفضة. وفي أحلامهم أيضا يرون أنفسهم في مناصب رفيعة، ويملكون مصانع يعمل فيها الآلاف من العمال، ويملكون من القوة ما يستطيعون به السيطرة على كثير من الناس، ويلبسون من الثياب ما يلقى إعجاب الجميع واستحسانهم... وكما أن الإنسان يكون مثار سخرية عندما يتباهى بما يملكه في أحلامه، كذلك يصبح مثار سخرية عندما يتباهى بما في هذا العالم الذي يعيش فيه. فكلاهما مجرد صور وتخيلات في عقله فقط.

وبالمثل، فإنّ الطريقة التي يستجيب بها الناس للأحداث التي تجرى حولهم في العالم يجب أن تشعرهم بالخجل من أنفسهم عندما يدركون الحقيقة.

إن هؤلاء الذين يحارب بعضهم بعضا بشراسة، ويصيحون بغضب ويخدعون ويقبلون الرشاوى ويقومون بالتزوير، والذين يكذبون ويكدّسون أموالهم بدافع الجشع، ويخطئون في حق الآخرين، والذين يظلمون الآخرين ويتلفظون بالشتائم، والذين يعتدون بوحشية على الآ خرين وعلى حقوقهم، والذين يحبون المناصب والسّلطة، والذين يحسدون غيرهم، ويتفاخرون، والذين يحاولون تقديس أنفسهم والاستعلاء على سائر البشر، كل هؤلاء سيصيبهم الخزي في الدنيا والآخرة عندما يدركون أنّ كل ذلك كان مجرد حلم.

وحيث إن الله سبحانه وتعالى هو الذي يخلق كل هذه الصور، فهو المالك وحده لا شريك له لكل شيء. ويبرز القرآن الكريم هذه الحقيقة في قول الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ (سورة النساء – الآية 126).

إنه لضرب من الغباء أن ينحي المرء دينه وإيمانه جانبا في سبيل مشاعر وأحاسيس وهمية فيخسر الحياة الآخرة التي هي النعيم الذي لا يزول.

يجب علينا في هذه المرحلة أن نتفهم جيدا الأمر التالي: إنّ ما نسوقه هنا من حديث لا يقول بأن الحقيقة التي تواجهها تعني "أن كل ممتلكاتك وثروتك وذريتك وزوجاتك وأصدقاءك ومنصبك الذي يبعث فيك الشعور بالزهو سيختفي إن عاجلا أو آجلا، ولذا فهي لا تعني شيئا". ولكن ما نقصده هو "أن كلّ ما يبدو لك أنك تملكه لا وجود له أساسا وهو مجرد حُلم يتكون من صور يريها لك الله تعالى ليختبرك". وكما ترى، فإنّ الفرق بين المقولتين كبير.

وبالرغم من أن الإنسان لا يريد الاعتراف بهذه الحقيقة على الفور ويفضل أن يخدع نفسه

وأن يفترض أن كل ما يملكه موجود بالفعل، فإنه سيواجه مصيره الأخير وهو الموت، وعندئذ تتضح الحقيقة عندما يُبعَث مرة أخرى. ففي ذلك اليوم سيبصر الإنسان كل شيء على حقيقته كما توضح لنا الآية الكريمة: ﴿...فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (سورة ق - الآية 22). وهو إن كان قد قضى حياته الدنيوية سعيا وراء أغراض خيالية، فسوف يتمنى في الآخرة لو أنه لم يعش مثل تلك الحياة في الدنيا. ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ. مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه﴾ (سورة الحاقة- الآيات 27-29).

أما الإنسان العاقل فيجب عليه أن يحاول أن يفهم ويدرك حقيقة هذا الكون وهو لا يزال في عالمه وبين يديه فسحة من الزمن. وإلا سيقضي حياته سعيا وراء الأحلام، وسيلقى في النهاية أشد العذاب. والله تعالى يصف لنا عاقبة هؤلاء الذين يلهثون وراء الخيالات أو "وراء السراب" ويتناسون خالقهم بقوله:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (سورة النور - الآية 39).

أوجه القصور المنطقي في وجهة نظر الماديين

لقد بيَّنَّا منذ بداية هذا الفصل أن المادة ليست ذات وجود مطلق كما يَدّعي الماديون، بل هي مجموعة من الأحاسيس التي خلقها الله. ولكن الماديين يقاومون في تعصب شديد هذا الواقع الملموس الذي ينقض فلسفتهم التي تسوق حججا واهية ليست من الحق في شيء.

لقد ساق لنا "جورج بوليتزر" -(George Politzer) أحد أشهر المدافعين عن الفكر الماديّ في القرن العشرين والمتعصب للماركسية - مثالا عن الحافلة "كأعظم دليل" على وجود المادة. يقول "بوليتزر": حتى الفلاسفة الذين يؤمنون بأن المادة عبارة عن إحساس وإدراك، يهربون مبتعدين عن مسار الحافلة إذا ما رأوها، وما هذا إلا إثبات ودليل على أن للمادة وجودا".[182]

أما عندما قيل لمفكر مادي مشهور آخر، هو "جونسون" (Johnson)، إن المادة عبارة عن مجموعة من الأحاسيس، فما كان منه إلا أن حاول أن يركل الأحجار بقدمه "ليثبت" وجودها الماديّ.[183]

وقد ساق "فردريك إنجلز" (Friedrich Engels)، الأستاذ الذي تتلمذ على يديه بوليتزر ومؤسس المادية الجدلية مع "ماركس" (Marx)، مثالا يشبه مثال بوليتزر حيث قال: "إذا كانت

عالم الأحلام

إن الواقع بالنسبة إليكم هو كل ما يمكن لمسه باليد ورؤيته بالعين. ولكنك أثناء الحلم تستطيع أيضا أن "تلمس بيديك وأن ترى بعينيك". ولكن في واقع الأمر، إنك لا تملك يدا ولا عينا، ولا يوجد ما يمكن لمسه أو رؤيته. فليس هناك واقع مادي يجعل هذه الأشياء تحدث إلا عقلك. فأنت ببساطة تتعرض للخداع. فما الذي يفصل بين الحلم والواقع؟ إن كلا منهما يتشكل داخل العقل. فإذا كنا نستطيع العيش بسهولة في عالم غير حقيقي في أحلامنا، فذلك يمكن تطبيقه أيضا على العالم الذي نعيشه. فنحن عندما نستيقظ من الحلم، لا يوجد سبب منطقي يمنعنا من الاعتقاد بأننا دخلنا في حلم أطول مدة يسمى "الحياة الحقيقية". والسبب الذي يجعلنا نعتقد أن أحلامنا هي عالم خيالي والعالم الذي نعيش فيه حقيقي يرجع فقط لاعتيادنا وأفكارنا المسبقة. وهذا يعني أننا قد نستيقظ من الحياة على الأرض التي نعتقد أننا نعيشها الآن، تماما مثلما نستيقظ من الحلم.



قطعة الكعك التي نتناولها مجرد إحساس وصورة خيالية لما جعلتنا نشعر بالشبع". (184)

إن كتب مشاهير الماديين أمثال ماركس، وإنجلز، ولينين مليئة بمثل هذه الأمثلة التي تستخدم عبارات مثل: "سيدرك المرء وجود المادة إذا ما تلقى صفعة على وجهه".

إن الخلل في إدراك الماديين وفهمهم ، الذي يجعلهم يسوقون مثل هذه الأمثلة، هو محاولتهم تفسير أن "المادة عبارة عن إدراك حسي" بأن "المادة خدعة ضوئية". فهم يظنون أن

الإدراك الحسي مقصور على الرؤية، أما الإدراكات الحسية الأخرى مثل اللمس فلها واقع مادي. فحين تصدم حافلة شخصا ما يقولون: "انظروا، لقد صدمته الحافلة. فهو ليس مجرد إدراك حسي إذن". إن الأمر الذي لا يفهمونه هو أن كل ما يحس به الإنسان في حادثة مثل تصادم الحافلة من صلابة، واصطدام، وألم، يحدث في المخ فقط.

مثال الأحلام

إن أفضل مثال يلقي الضوء على هذه الحقيقة ويشرحها هو الأحلام. فالإنسان قد يرى أحداثا تبدو واقعية تماما وهو يحلم. قد يرى الإنسان في الحلم أنه يقع على السلم فتنكسر قدمه، أو يرى حادث سيارة مُرَوِّعا، وقد يحلم بأن حافلة قد صدمته، أو أنه يأكل قطعة من الكعك ليشبع جوعه.

فالشخص الذي يرى في المنام أن حافلة صدمته، قد يفتح عينيه – وهو لا يزال في المنام – فيجد نفسه في مستشفى، ويشعر أنه قد أصبح مُعوّقا، لكن كل هذا سيكون حلما. وقد يرى أيضا أنه مات في حادث سيارة، وأن ملائكة الموت قد قبضوا روحه، وأن الحياة الآخرة قد بدأت. (هذا الموقف يقع بنفس التفاصيل في الحياة الدنيا، التي هي عبارة عن أحاسيس كالحلم تماما.)

إن الشخص الذي يرى هذه الأحداث في نومه يرى المناظر ويسمع الأصوات ويشعر بالصلابة ويرى الضوء والألوان ويحس بجميع الأحاسيس الأخرى المتعلقة بهذا الحادث. وهذه الأحاسيس التي يشعر بها في نومه تكون طبيعية كما في الحياة "الحقيقية". والكعكة التي يتناولها في نومه تُشعره بالشبع رغم أنها ليست إلا إحساسا، ذلك أن الشبع في حد ذاته هو كذلك مجرد شعور وإحساس. ولكن هذا الشخص في واقع الأمر يكون مستلقيا على فراشه في نفس اللحظة التي يرى فيها كل هذه الأحداث. فليس ثمة سُلم، ولا مرور، ولا حافلة، ولا كعك. فالشخص الذي يحلم يعيش أحاسيس ومشاعر لا تمت للعالم الخارجي بصلة. وحيث إننا عندما نحلم نرى ونشاهد ونشعر بأحداث لا توجد في "العالم الخارجي"، فهذا يثبت أن العالم الخارجي الواقعي ذاته ليس إلا مشاعر وأحاسيس.

إن أولئك الذين يؤمنون بالفلسفة المادية وخاصة الماركسيين يجتاحهم الغضب عندما يُواجَهون بهذه الحقيقة، حقيقة المادة. ويستعينون بأمثلة سطحية غير ذات مغزى مقتبسة عن ماركس، وإنجلز، ولينين، ويطلقون تصريحات عاطفية.

ولكن على هؤلاء أن يتذكروا أنهم قد يطلقون هذه التصريحات أيضا في أحلامهم. ففي أحلامهم يمكن أن يقرؤوا كتاب (Das Kapital) "رأس المال"، أو يشتركوا في أحد الاجتماعات أو يتشاجروا مع الشرطة، أو يتلقوا ضربة على رؤوسهم أو غير ذلك، وسيشعرون بالألم. ولو سئلوا في الحلم سيجيبون بأن ما يرونه ويشعرون به يتكون أيضا من "مادة مطلقة"، تماما مثلما يفترضون أن الأشياء التي يرونها في يقظتهم هي "مادة مطلقة". وسواء أكانوا يحلمون أو يعيشون حياتهم اليومية، فإن كل ما يرونه ويشعرون به هو مجرد أحاسيس.

مثال ربط الأعصاب بالتوازي

ولنأخذ مثال حادث التصادم الذي ساقه بوليتزر. فإذا ما أخذنا أعصاب الحواس الخمس المتصلة بالمخ لدى الشخص الذي تعرض للحادث، ووصَّلناها بالتوازي مع مخ شخص آخر، وليكن بوليتزر، ففي اللحظة التي صدمت فيها الحافلة هذا الشخص ستصدم بوليتزر في حين أنه جالس في بيته. بل إنه سيشعر بكلّ الأحاسيس التي شعر بها الشخص الذي تعرض للحادث، وأوضح تشبيه لذلك هو الأغنية التي تستمع إليها من سماعتين مختلفتين كلتاهما متصلة بنفس جهاز التسجيل. فبالرغم من وجوده في بيته أثناء حادث التصادم، فإن بوليتزر سيرى ويسمع صوت فرملة الحافلة، ومرورها على جسده، ويشاهد نزيف الدم، وسيشعر بآلام الكسر، ويرى نفسه عند دخوله غرفة العمليات، ويشعر بصلابة الجبس على ذراعه وقدمه المكسورة، كما سيشعر بضعف ذراعه.

ولو قمنا بتوصيل الأعصاب الحسية للشخص المصاب على التوازي بأي عدد آخر من البشر فإن جميعهم سيعيشون الحادث من بدايته إلى نهايته مثل بوليتزر تماما. ولو وقع الشخص المصاب في غيبوبة سيقع الآخرون بدورهم في غيبوبة. بل إننا لو قمنا بتسجيل هذه الأحاسيس بجهاز معيَّن ثم نقلناها إلى مخ شخص ما، فإن هذا الأخير سيعيش الحادث ويشعر باصطدام الحافلة به أيضا.

ولنسأل الآن: أي من هذه الحافلات التي صدمت هؤلاء الأشخاص حقيقية؟ إن الفلسفة المادية ليست لديها إجابة محددة عن هذا السؤال. فالإجابة الصحيحة هي أن كل هؤلاء مروا بتجربة حادث التصادم بكل تفاصيله في أذهانهم فقط.

ويسري نفس المبدأ على أمثلة الكعكة وركل الأحجار. فلو أن أعصاب أعضاء الحواس لدى إنجلز الذي شعر بالشبع بعد تناوله لقطعة الكعك، قد رُبطت بمخ شخص آخر بالتوازي،

لَشَعر الشخص الآخر أيضا بالشبع والامتلاء عندما يأكل إنجلز الكعكة. ولو أن الأعصاب الحسية لدى جونسون الذي شعر بألم في قدمه عندما ركل الحجر، قد رُبطت بالتوازي بمخ شخص آخر، لشعر الأخير بالألم نفسه.

فأي من الكعكتين والحجرين حقيقي إذن؟ وللمرة الثانية تعجز الفلسفة المادية عن الإجابة على هذا السؤال، فكلٌ من إنجلز والشخص الآخر قد أكل الكعكة في ذهنه وشعر بالشبع، كما أن كلاً من جونسون والشخص الآخر قد شهِد لحظة ركل الحجر في ذهنه وأحس بكل ما حدث فيها.

ولنحاول إجراء تعديل على مثال بوليتزر: لِنوصِّل الأعصاب الحسية للشخص المصاب بمخ بوليتزر ونوصل الأعصاب الحسية لدى بوليتزر، الجالس في منزله، بمخ الشخص المصاب. ففي هذه الحالة، سيعتقد بوليتزر أن الحافلة قد صدمته رغم جلوسه في منزله، أما الشخص الذي تعرض للحادث فعلا فلن يشعر بأي أثر للاصطدام وسيعتقد أنه جالس في منزل بوليتزر. ويمكن إجراء التعديل نفسه والمقارنة نفسها على مثالَي الكعكة والحجر.

يتضح لنا الآن أن الإنسان لا يستطيع أن يتجاوز أحاسيسه ويتحرر منها. فروح الإنسان يمكن أن تتعرض لجميع أنواع الأحاسيس بالرغم من أنه ليس لها وجود مادي وتفتقر حتى للوزن المادي. ومن الصعب على المرء أن يدرك هذه الحقيقة، لأنه يفترض أن هذه الصور ثلاثية الأبعاد حقيقية ويكاد يكون على يقين من وجودها، ذلك أننا جميعا نعتمد على أحاسيسنا التي تقودنا إليها أعضاؤنا الحسية.

ويعبر لنا الفيلسوف البريطاني الشهير "ديفيد هيوم" (David Hume) عن أفكاره فيما يتعلق بهذه الحقيقة كالتالي: "بصراحة، عندما أدخل نفسي فيما أسميه "نفسي"، أجد نفسي دائما أشعر بأحاسيس معينة تتعلق بالحرارة والبرودة، والضوء والظل، والحب والكراهية، والمرارة والحلاوة أو غير ذلك من الأحاسيس. وبدون هذه الأحاسيس لا يمكنني أن أجد نفسي في موقف ما في توقيت معين، ولا أستطيع الشعور بشيء إلا بهذه الأحاسيص.[185]

الأحاسيص التي تتكون في أذهاننا ليست فلسفة بل حقيقة علمية

يدّعي أنصار الفكر المادّي أن ما سردناه حتى الآن هو وجهة نظر فلسفية. ولكن اعتبار "العالم الخارجي"- كما نسميه- مجموعة من المدارك والأحاسيس ليست مسألة تتعلق

بالفلسفة بل هو حقيقة علمية واضحة. حتى إنه في كليات الطب يدرس الطلاب بالتفصيل كيف تتشكل الصور والمشاعر في المخ.

هذه الحقائق التي أثبتها العلم في القرن العشرين، وخاصة علم الفيزياء، تثبت بشكل قاطع أن المادة ليس لها وجود حقيقي مطلق وأن كل واحد منّا يشاهد ما تعرضه عليه تلك "الشاشة" المزروعة في ذهنه.

إن كل من يؤمن بالعلم والحقائق العلمية، أيا كان مذهبه، بوذيا كان أو غير ذلك، بل كل من يعتنق أي وجهة نظر أخرى، يجب أن يتقبل هذه الحقيقة. فالماديون أنفسهم قد ينكرون وجود الخالق لكنهم لا يستطيعون إنكار هذه الحقيقة العلمية.

وبالرغم من أن التقدم العلمي لم يبلغ مستوى كبيرا في فترة كارل ماركس، وفريدريك إنجلز، وجورج بوليتزر، فإن هذا ليس بعذر ولا يبرر عدم قدرتهم على فهم هذه الحقيقة البسيطة الواضحة. وفى وقتنا هذا وبفضل التقدم العلمي والتكنولوجي والاكتشافات الحديثة، أصبح من السهل فهم هذه الحقيقة وإدراكها.

ولكن الماديين على أية حال يملأ الخوف قلوبهم إلى حد كبير، ليس فقط من فهمهم لهذه الحقيقة، ولكن من تأكدهم من أن هذه الحقيقة تدحض دون شك فلسفتهم.

أكبر مخاوف الماديين

لقد مرّ بعض الوقت دون أن يصدر من دوائر الفكر المادي في تركيا أي رد فعل جوهري ضد القضية التي أثرناها في هذا الكتاب، وهي أن المادة ليست إلا مجرد إحساس وإدراك، مما أعطانا انطباعا بأننا لم نبين وجهة نظرنا على النحو الأمثل وأن الأمر لا يزال يحتاج إلى مزيد من التوضيح، ولكن الوقت لم يطل حتى نما إلينا أن الماديين قد ساورهم القلق والانزعاج بسبب الشعبية التي حظيت بها هذه القضية، والأكثر من ذلك، أنهم شعروا بالخوف الشديد مما يترتب على ذلك.

لقد ظل الماديون لبعض الوقت يعلنون على الملأ خوفهم فيما ينشرونه وفي المؤتمرات وفي دوائرهم العلمية. فكتاباتهم ومقالاتهم التي لا رجاء منها والتي تنطق بالقلق الشديد، توحي بأنهم يعانون من أزمة فكرية حادة. فقد جاء التفنيد العلمي لنظرية التطور- التي يزعمون أنها أساس فلسفتهم- بمثابة صدمة لهم. والآن، هاهم أولاء يدركون أنهم على وشك خسارة

جوهر القضية ذاتها (المادة)- التي هى لهم سند أكثر من "نظرية داروين" ذاتها، فيعانون صدمة أشد. لقد صرحوا بأن هذه القضية هي "أكبر تهديد" يواجههم وأنها "تدحض تماما ثقافتهم المصطنعة".

وكان أحد الذين عبروا عن قلق الماديين وذعرهم بأكثر الطرق صراحة، هو "رينان بيكانلو" (Renan Pekunlu) وهو أكاديمي وكاتب في مجلة "العلم والمدينة الفاضلة" (Science and Utopia) الدوريّة، التي أخذت على عاتقها مهمة الدفاع عن الماديين. ففي مقالاته في هذه المجلة وفى تصريحاته بالدوائر العلمية والمؤتمرات التي يحضرها، يقدم بيكانلو كتاب "خدعة نظرية التطور" (Evolution Deceit) على أنه مصدر التهديد الأول للفكر المادي. وقد انزعج بيكانلو من الجزء الذي تقوم بقراءته الآن أكثر من الفصول التي فندنا فيها نظرية داروين. لقد ألقى بيكانلو على قرائه وعلى جمهوره (الذي لا يزيد عن حفنة أشخاص) رسالة تقول "لا تتركوا أنفسكم للانسياق وراء دروس مذهب المثالية وتعاليمها وحافظوا على إيمانكم بالمذهب المادي" ذاكراً "فلاديمير لينين" (Vladimir I. Lenin) زعيم الثورة الاشتراكية الدموية في روسيا كمثال على ما قاله. وكان كل ما فعله بيكانلو بعد أن نصح الجميع بقراءة كتاب لينين الذي كتبه منذ قرن مضى بعنوان "المذهب المادي والنقد الجدلي" (Materialism and Empirio-criticism) هو أن كرَّرَ نصائح لينين التي تقول: "لا تفكروا في هذه القضية، وإلا ستنحرفون عن طريق المادية ويجرفكم تيار الدين". وفي إحدى مقالاته التي كتبها بالمجلة المذكورة آنفا، نقل الآتي عن لينين:

"فور إنكاركم للواقع المادي الذي تنقله لنا حواسنا، تكونون قد خسرتم بالفعل كل سلاح يمكنكم به محاربة المذهب الإيمانيّ، لأنكم ستكونون قد انسقتم خلف اللاأدرية، أو الذاتانية (وهي مذهب فلسفي يقيم المعرفة على أساس الخبرة الذاتية)، وهذا هو كل ما يتطلبه المذهب الإيماني. فالطائر يقع في الشرك لو علق مخلب واحد فيه، وأنصارنا جميعهم قد وقعوا في شرك المثاليّة، أي في شرك صورة مخفَّفة ماكرة للمذهب الإيمانيّ. لقد وقعوا في الشرك في اللحظة التي اعتبروا فيها أن الإحساس ليس صورة للعالم الخارجي ولكنه "عنصر أو مكون" خاص. فلا إحساس لشخص بعينه، ولا عقل لشخص بعينه، ولا نفس لشخص بعينه، ولا إرر ادة لشخص بعينه".[186]

إن هذه العبارات تبين بوضوح أن الحقيقة التي أدركها لينين وفزع منها وحاول أن

يخرجها من ذهنه ومن أذهان "رفاقه" تزعج أيضا الماديين المعاصرين. ولكن بيكانلو وغيره من الماديين يعانون أزمة أخرى أشد وقعا، لأنهم يدركون أن هذه الحقيقة تُعرض وتُناقش الآن بوضوح وبيقين أكبر وبطريقة أكثر إقناعا مما كان عليه الأمر منذ 100 عام مضى. فلأول مرة في التاريخ، يتم تفسير هذا الموضوع ومناقشته بهذا الأسلوب الذي لا يمكن مقاومته.

ومع ذلك، وبصفة عامة، لا يزال عدد كبير من العلماء الماديين يتخذون موقفا مضادا سطحيا للغاية من حقيقة أن "المادة ليست إلا وهما". إن الموضوع الذي طرحناه في هذا الفصل من الكتاب هو من أكثر الموضوعات أهمية وإثارة لأي إنسان على مدار حياته كلها. فلا يمكن للماديين أن يكونوا قد صادفوا من قبل مثل هذا الأمر البالغ الأهمية. ولكن مع هذا، فردود أفعالهم وأسلوب حديثهم ومقالاتهم ينم عن ضحالة تفكيرهم وسطحيته.

بل إنها من الضحالة والسطحية إلى درجة أن استجابة بعض الماديين لمناقشة الموضوع الواردة هنا تبين أن انقيادهم الأعمى للمادية قد سبب نوعا من الخلل في منطقهم، ولهذا فهم أبعد ما يكون عن فهم هذا الموضوع وإدراكه. فمثلا، نجد أن "ألاتين سينيل" (Alaattin Senel)، وهو أيضا أكاديمي وكاتب في مجلة "العلم والمدينة الفاضلة" Science and Utopia أرسل رسالة مشابهة لتلك التي أرسلها رينان بيكانلو يقول فيها: "دعكم من انهيار نظرية داروين، فهذا هو التهديد الحقيقي". وطالب قائلا: "عليكم إثبات ما تقولون" وهو يشعر أن فلسفته لا أساس لها. والأكثر عجبا من ذلك، أن هذا الكاتب نفسه كتب سطورا كشف فيها أنه هو نفسه لا يستطيع مطلقا فهم هذه الحقيقة التي يراها تهديدا.

فعلى سبيل المثال، كتب سينيل في مقال يناقش فيه باستفاضة هذا الموضوع، أنه يتقبل كون العالم الخارجي عبارة عن خيالات وصور يستقبلها الذهن. ولكنه يزعم بعد ذلك أن هذه الصور تنقسم إلى قسمين: صور لها واقع مادي وأخرى ليس لها ذلك الواقع الماديّ، وأن الصور التي تتعلق بالعالم الخارجي لها ارتباطات ملموسة. ولتعضيد زعمه، يعطي "مثال التليفون". وكان ما كتبه: "أنا لا أعرف إذا ما كانت الصور في ذهني لها ارتباطات بالعالم الخارجي أم لا، ولكن نفس الشيء ينطبق على التليفون. فعندما أتحدث في التليفون، لا أستطيع رؤية الشخص الذي أتحدث إليه، ولكني أستطيع أن أؤكد هذه المحادثة عندما أراه لاحقا وجها لوجه".[187]

وبقوله هذا، فما يعنيه هذا الكاتب حقيقة هو التالي: "إذا كنا نشك في مداركنا وأحاسيسنا، يمكننا أن ننظر للمادة نفسها ونتحقق منها". ولكن هذا دليل قاطع على خلط المفاهيم لأنه من المستحيل أن نصل إلى حقيقة المادة نفسها. لا يمكن أن نخرج من عقولنا ونرى

ما هو "بالخارج". ومسألة صوت الشخص الذي نحادثه على التليفون وهل هو واقعي أم لا فذلك يمكن تأكيده من خلال الشخص ذاته. ولكن حتى هذا التأكد هو أمر وهمي يحدث في عقولنا فقط.

وفي الواقع، يرى هؤلاء هذه الأحداث في أحلامهم أيضا. فمثلا، قد يحدث أن يرى سينيل في الحلم انه يحدِّث شخصا على التليفون ثم يتأكد من إجراء هذه المحادثة عندما يلقاه وجها لوجه. وقد يشعر بيكانلو بأنه يواجه "تهديدا ما" أيضا وهو يحلم وينصح القراء بأن يقرؤوا كتب لينين التي كتبها من قرن مضى. ولكن مهما حاول هؤلاء، فليس بمقدورهم أبدا أن ينكروا أن الأحداث التي مروا بها والأشخاص الذين تحدثوا إليهم ما هم إلا صور في أذهانهم.

ولكن كيف يمكن للمرء أن يتأكد من أن الصور التي يراها في ذهنه لها ارتباطات واقعية من عدمه؟ مما لا شك فيه أن الماديين من المستحيل أن يجدوا مصدرا للمعلومات يعطي بيانات تتعلق بالمحيط الخارجي للمخ ويؤكد وجوده.

ولكن التسليم بأن كل الرؤى تتكون في المخ، مع الافتراض في ذات الوقت بأن المرء يمكن أن يتخطى هذا المحيط ويؤكد هذه الرؤى في العالم الخارجي يكشف عن محدودية القدرات الاستيعابية لدى هذا الشخص وخلل منطقه.

والحقيقة النى نسوقها هنا يمكن للشخص ذي المستوى الطبيعي من الفهم والمنطق أن يدركها. فالشخص غير المتعصب سيعرف، إذا ما فكر في كل ما سردناه هنا، أنه لا يمكنه اختبار وجود العالم الخارجي بحواسه. إلا أنه يبدو أن الانصياع الأعمى للمادية يخل بقدرات الفهم والإدراك لدى هؤلاء. ولهذا السبب، يُظهر الماديون المعاصرون قصورا شديدا في منطقهم تماما مثل أساتذتهم الذين حاولوا "إثبات" وجود المادة بركل الحجر وتناول الكعك.

يتعين علينا أن نقرر أن مواقف هؤلاء لا تدعو للدهشة، لأن عدم القدرة على الفهم هي سمة كل الجاحدين الكافرين. وفى القرآن الكريم يظهر الله صفتهم في الآية الكريمة التالية: ﴿...**قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ**﴾ (سورة المائدة – الآية 58).

لقد وقع الماديون في أكبر كمين في التاريخ

إن مناخ الرعب الذي يجتاح الماديين في تركيا، والذي ذكرنا بعض ملامحه فقط، يثبت أن الماديين يواجهون هزيمة تامة لم يلقوها من قبل في التاريخ. فحقيقة كون المادة مجرد إحساس تم إثباتها بوسائل العلم الحديث وعُرضت بكل وضوح وقوة. ويبقى على الماديين أن يشاهدوا

انهيار العالم المادي بأسره الذي يعمون عيونهم عن غيره ويعتمدون عليه.

كانت فكرة الوجود المادي قائمة على مدار تاريخ الإنسانية، وكان الماديون واثقين من أنفسهم وفلسفتهم التي يؤمنون بها حتى إنهم كفروا بالله سبحانه وتعالى الذي خلقهم. ويفترض السيناريو الذي نسجوه أن المادة ليس لها بداية أو نهاية ولا يمكن أن تكون قد خُلقت. وبينما أنكروا وجود الله لتكبرهم وعنادهم، لجأوا إلى المادة التي اعتقدوا أن لها وجودا حقيقيا. وقد كانوا على يقين تام من فلسفتهم حتى إنهم لم يظنوا قط أن من الممكن إثبات العكس.

وهذا هو السبب في أن الحقائق التي ذكرت في هذا الكتاب بخصوص الطبيعة الحقيقية للمادة قد أدهشت هؤلاء الناس بدرجة كبيرة. إن ما ذكرناه هنا يهدم أساس نظريتهم تماما، ولا يترك أي مجال لمزيد من المناقشة. لقد انهارت فجأة المادة التي أسسوا عليها كل أفكارهم وحياتهم وغرورهم وإنكارهم. فكيف توجد الفلسفة المادية عندما لا توجد المادة؟

من صفات الله تعالى الكيد للمنكرين. فهو يقول: ﴿... **وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ (سورة الأنفال - الآية 30).

فقد أضل الله الماديين بأن جعلهم يظنون أن المادة توجد حقيقة، وبذلك أذلّهم دون أن يعوا هم أنفسهم ذلك. فقد اعتبر الماديون كل شيء يمتلكونه، وأحوالهم ومناصبهم والمجتمع الذي ينتمون إليه والعالم بأسره وكل شيءٍ آخَرَ حقيقةً قائمةً. وأكثر من ذلك، فقد تكبّروا أمام الله واعتمدوا على هذه الماديات بدلا من الله سبحانه وتعالى. لقد تمردوا بتبجح على الله وتباهوا بذلك فزاد هذا من كُفرهم وجحودهم. وقد اعتمدوا على المادة في كل ما تَقَدّم، إلا أنهم بسبب ضعف فهمهم، فشلوا في إدراك أن الله يحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم. ويصف لنا الله النتيجة التي وصل إليها الكافرون بسبب عنادهم في الآية الكريمة التالية: ﴿**أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ**﴾ (سورة الطور - الآية 42).

قد تكون هذه هي أكبر هزيمة تلحق بهم في التاريخ. فبينما ظن الماديون أنهم يزدادون كِبرا أمام الله سبحانه وتعالى، كانوا ينجرفون إلى الكمين الذي نصبه الله لهم وعانوا تلك الهزيمة الثقيلة في حربهم التي شنّوها ضد الله بتصديهم له. ففي الآية الكريمة التالية، يبين لنا الله أن هؤلاء الذين ثاروا ضده سبحانه وتعالى لا يدركون ما يفعلون ويبيّن لنا نهايتهم: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾ (سورة الأنعام - الآية 123). ويؤكد الله هذه الحقيقة في آية أخرى فيقول: ﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ**

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (سورة البقرة – الآية 9).

وبينما يمكر المشركون، لم يتنبّهوا لحقيقة هامة ساقتها الآية الكريمة السابقة في قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾. وهي أن كل شيء يشهدونه هو وَهم صُمم ليروه هم، وأن كل محاولات المكر التي يقومون بها هي في عقلهم فقط، تمت مثل أي عمل آخر يقومون به. لقد نسوا بسبب حماقاتهم أنهم وحدهم مع الله سبحانه وتعالى ولذلك فقد وقعوا في شرك خططهم المنحرفة.

ومثلما حدث لأسلافهم، سيواجه المشركون في أيامنا هذه واقعا سيهدم كل خططهم المنحرفة من أساسها. فالقرآن يخبرنا أن مكائدهم إلى زوال وهي لا تزل في مهدها بقوله تعالى: ﴿... **إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا**﴾ (سورة النساء – الآية 76)، كما يطمئن القرآن المؤمنين بقوله: ﴿... **لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا** ...﴾ (سورة آل عمران – الآية120).

وفي آية أخرى يقول عزَّ وجلَّ: ﴿...**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا**...﴾ (سورة النور – الآية 39). فالمادية أيضا ستصبح سرابا للذين عَصَوا كما تذكر الآية، وعندما يحتمون بها سيجدونها وهما وخيالا. فقد أضلهم الله بهذا السراب وجعلهم يعتقدون أن كل هذه الصور التي يرونها حقيقية. إن كل هؤلاء "المشهورين" من أساتذة، ورُوّاد فضاء وعلماء أحياء وفيزياء وكل من عداهم بغض النظر عن مناصبهم وألقابهم قد خُدعوا ببساطة مثل الأطفال، وكان ذلك سببا في إذلالهم لأنهم اتخذوا المادة إلها لهم. لقد افترضوا أن هذه المجموعة من الصور لها حقيقة مطلقة، وبنوا عليها فلسفتهم وأفكارهم وانخرطوا في نقاش جاد حولها متخذين ما أسموه "حديثا فكريا". لقد رأوا أن لديهم من الذكاء والحكمة ما يؤهلهم للاشتراك في جدال حول حقيقة الكون، والأهم من ذلك، للجدال في وجود الله بمعرفتهم المحدودة. والله يصورهم بقوله: ﴿**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**﴾ (سورة آل عمران – الآية 54).

إن بعض الخطط والكمائن في هذه الدنيا يمكن تحاشي الوقوع فيها، لكن الكمين الذي نصبه الله لهؤلاء المنكرين محكم لدرجة أنه لا مفر منه أمامهم. فمهما حاولوا وأيا كان من يلجأون إليه، فلن يجدوا من دون الله وليا ولا نصيرا. وذلك كما أخبرنا الله في قوله: ﴿... **وَلا**

يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾ (سورة النساء - الآية 173).

لم يتوقع الماديون قط أن يقعوا في مثل هذا الكمين فهم يُسخِّرون كل ما هو حديث في القرن العشرين لخدمة أغراضهم، وقد ظنوا أن بإمكانهم أن يتمسكوا بإنكارهم وعنادهم أكثر وأن يسوقوا الناس إلى الكُفر والشِّرك. وهذا التفكير الذي طالما سيطر عليهم يصفه الله بقوله: **﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ* فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** (سورة النمل- الآيات 50-51).

وهذه هي الحقيقة التي تبرزها الآية الكريمة: لقد قصد الله أن يجعل الماديين يدركون أن كل ما يملكونه ليس إلا وهما وخيالا ولذلك تعرض كل ما يمتلكونه للدمار والفناء. فهم يشاهدون ممتلكاتهم ومصانعهم وذهبهم وأموالهم وأطفالهم وزوجاتهم وأزواجهم وأصدقاءهم ومناصبهم وحتى أجسادهم، وكل ما يظنونه موجودا بالفعل، يتسرب من تحت أيديهم ويفنى. فهي تفنى ويأتي الله عليها بالدمار كما تذكر الآية 51 من سورة النمل. وهم عندئذ ليسوا من المادة في شيء بل هم مجرد روح.

إن إدراك هذه الحقيقة هو بلا شك أسوأ ما يمكن أن يحدث للماديين. فحقيقة أن كل ما يملكونه هم وهم وخيال يعادل على حد تعبيرهم "الموت قبل أن يموت الإنسان فعلا".

وتتركهم هذه الحقيقة وحدهم مع الخالق سبحانه. فالله يلفت انتباهنا إلى أنه في حقيقة الأمر كل منا يعيش وحيدا مع الله في هذا الوجود، فيقول: **﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾** (سورة المدثر - الآية 11).

هذه الحقيقة يؤكدها الله في آيات كثيرة أخرى منها: **﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ...﴾** (سورة الأنعام - الآية 94). والآية: **﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾** **(سورة** مريم - الآية 95).

إن الحقيقة التي تشير إليها الآية هي أن هؤلاء الذين يؤمنون بالمادة ويتخذونها إلها قد خلقهم الله وإليه مرجعهم. وقد سلّموا إرادتهم إلى الله سواء شاءوا أو لم يشاءوا. وهم الآن ينتظرون يوم الحساب الذي سيُنادى فيه كل منهم على حدة لمحاسبته، مهما كانت رغبتهم في عدم فهم ذلك وإدراكه.

النتيجة

إن الموضوع الذي بحثناه هنا يتعلق بواحدة من أعظم الحقائق التي يمكن للإنسان أن يواجهها على الإطلاق. وهو إثبات أنّ العالم الخارجي "كيان وهمي". إنّ هذا الموضوع هو أساس فهم وجود الله وإدراكه وخلقه لكل شيء، والإيمان بأن الله هو الكائن الوحيد الموجود وجودا مطلقا.

ومن يتفهم هذا الأمر يدرك أن العالم ليس كما يظنه البشر. فالعالم ليس كيانا مطلقا له وجود حقيقي كما يظن هؤلاء الذين يجولون بلا هدف في الشوارع، والذين يتشاجرون على الملأ، والذين يتفاخرون وهم جالسون في المقاهي والمطاعم المُكلّفة، والذين يتباهون بممتلكاتهم، أو الذين يكرسون حياتهم لأهداف واهية. فالعالم ليس سوى مجموعة من الأحاسيس، وبعبارة أخرى، إنه عبارة عن وهم. حتى إن كل من ذكرناهم آنفا هم كائنات كالظل، ترى وتدرك هذه الأحاسيس والمشاعر في عقلها، ومع ذلك فهم لا يدركون ذلك.

وهذا المفهوم في غاية الأهمية لأنه يُفنّد فلسفة الماديين التي تنكر وجود الله وبالتالي يتسبب في انهيارها. ولهذا انتاب الذعر الماديين أمثال ماركس وإنجلز ولينين، واجتاحهم الغضب، وحذروا زملاءهم من "عدم التفكير" في هذا المفهوم، عندما أصبحوا أخيرا في مواجهته. وحقيقة الأمر أن مثل هؤلاء يعانون من خلل في تفكيرهم العقلي لدرجة أنهم لا يمكنهم فهم هذه الحقيقة وهي أن المشاعر والأحاسيس تتشكل في المخ. وهم يفترضون أن العالم الذي يرونه في أذهانهم هو العالم الحقيقي ولا يستطيعون إدراك الحقيقة الواضحة وهي عكس ما يظنون تماما.

إن الله سبحانه وتعالى لم ينعم على هؤلاء برجاحة العقل والحكمة الكافية فكان ذلك السبب في نقص وعيهم وإدراكهم. ويخبرنا القرآن الكريم بذلك في الآية القرآنية التالية:

﴿...لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (سورة الأعراف - الآية 179).

إن بإمكانك أن تعلم أكثر عن هذا الأمر إذا ما استخدمت "طاقة تأملاتك الشخصية". ولكي تفعل ذلك، يجب أن تركز وأن تتنبه وأن تفكر جيدا في الطريقة التي ترى بها الأشياء من حولك والطريقة التي تشعر بها بملمس الأشياء. وإذا ما فكرت جيدا، ستشعر أن الكائن العاقل الذي يرى ويسمع ويلمس ويفكر ويقرأ هذا الكتاب في هذه اللحظة، هو مجرد روح ترى وتشاهد الأحاسيس التي تُسمّى المادة على شاشة ما. ومن استطاع أن يدرك هذا جيدا، فإنه يكون قد تحرر من سيطرة العالم المادي التي تخدع معظم البشر ويكون قد انتقل إلى حيز

الوجود الحقيقي.

لقد نجح بعض المؤمنين بالله والفلاسفة في فهم هذه الحقيقة على مدار التاريخ. وقد أدرك بعض مفكّري الإسلام مثل الإمام ربّاني، ومحيي الدين بن عربي، وميفلانا كامي، هذه الحقيقة من آيات القرآن الكريم وبإعمال عقلهم وتفكيرهم. وقد توصل بعض فلاسفة الغرب أيضا إلى الحقيقة نفسها من خلال العقل والمنطق. وقد كتب الإمام ربّاني في رسائله أن الكون المادي بأسره هو وهم وخيال وأن الكائن الوحيد ذا الوجود المطلق هو الله:

إن الجوهر الذي خلق منه الله هذه الكائنات هو العدم. بل خلق الله الكون من أحاسيس وخيالات وهي ليست لها طبيعة مادية. وفي الحقيقة، لا يوجد شيء في الخارج سوى الكائن الأعظم وهو الله سبحانه وتعالى. (188)

لقد أوضح الإمام ربّاني أن كل ما يشاهده الإنسان ما هو إلا وهم وخيال وليس له أصل مادي في الخارج. إن دائرة التخيل تنتقل في عقولنا فقط ونحن نراها بمقدار ما تنتقل، ولكن بالعين التي يرى بها عقلنا. وخارج هذا المحيط، يبدو لنا أننا نرى ولكن بأعيننا التي خلقها الله في رؤوسنا. ولكن الأمر ليس كذلك بالفعل، فهي ليس لها كيان مادي ولا يمكن اقتفاء أثرها في الخارج. فليس هناك ما يمكن أن نراه. حتى عندما نرى انعكاس وجه شخص ما في المرآة، فحتى هذا لا أساس له في الخارج. ومما لا شك فيه أن ثبات هذه الصورة التي نراها وانتظامها هو في خيالنا فقط. والله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم بواطن الأمور. (189)

لقد توصل ميفلانا كامي إلى الحقيقة نفسها التي اكتشفها من خلال آيات القرآن وبالتفكير العقلاني المنطقي. كما كتب مفكرون عظماء أمثال ربّاني أنه ربما لم يكن من الحكمة إطلاع البشر على هذه الحقيقة حيث إن معظمهم لن يستطيع فهمها والاقتناع بها.

وفي عصرنا هذا الذي نعيش فيه، أصبحت هذه الحقيقة ثابتة وتستند إلى الدلائل والبراهين بفضل إثبات العلم لها. إنها المرة الأولى التي تثبت فيها هذه الحقيقة بهذا الشكل القاطع والواضح والصريح الذي حدث في عصرنا هذا.

ولهذا سيشهد القرن الحادي والعشرون نقطة تحول تاريخية عندما يدرك البشر جميعا الحقائق الإلهية وينقادون إلى طريق الله. فالقرن الحادي والعشرون سيشهد زوال معتقدات القرن التاسع عشر- المعتقدات المادية- و فناءها في غياهب التاريخ، وسيدرك البشر وجود الله وخلقه، وسيفهم الجميع حقائق مثل انعدام المكان والزمان، وستتحرر البشرية من حُجُب القرون الماضية والخدع والخرافات التي تحيط بها. وليس لهذا المسار المحتوم أن يتغير أو تؤثر فيه أي كائنات وهمية.

نسبية الزمن وحقيقة القدر

يتضح لنا من كل ما سبق أنه لا يوجد في الواقع "مكان ذو ثلاثة أبعاد"، وإنما هو حكم ينبع تماما من الإدراك الحسي ومن الشعور، وأن المرء يقود حياته كلها في "اللامكان". وتوكيد عكس ذلك ما هو إلا إيمان بالخرافات بعيد عن المنطق والحقائق العلمية، حيث لا يوجد دليل واضح على وجود عالم مادي ذي ثلاثة أبعاد. وتبطل هذه الحقيقة الفرضية الأولى للفلسفة المادية التي تشكل الأساس لنظرية التطور، والتي تفترض أن المادة حقيقة مطلقة وأبدية، أما الفرضية الثانية التي تعتمد عليها الفلسفة المادية فهي كون الزمن حقيقة مطلقة وأبدية، وهذه أيضا خرافة مثل السابقة.

إدراك الزمن

إن الإحساس الذي نطلق عليه الزمن، هو في الواقع نظام يتم فيه مقارنة لحظة بأخرى، ويمكننا شرح ذلك بهذا المثال: إذا ما نقر شخص جسمًا ما فسيسمع صوتًا معينًا، وإذا ما نَقر هذا الجسم نفسه بعد خمس دقائق فسيسمع صوتًا آخر، وبالتالي يدرك المرء أن هناك فترة بين الصوت الأول والثاني، ويسمِّي هذه الفترة "زمنا". إلا أنه عند سماع الصوت الثاني لا يكون الصوت الأول إلا خيالا في ذهنه أو مجرد معلومة في ذاكرته، فالمرء يشكل إدراكه "للزمن" عن طريق مقارنة اللحظة التي يعيشها بما هو موجود في ذاكرته، وإذا لم تتم هذه المقارنة فلن يكون هناك إدراك للوقت.

وبالمثل، يُجري المرء مقارنة عندما يرى شخصا يدخل من باب الحجرة ويجلس على مقعد في وسط تلك الحجرة، ففي الوقت الذي يجلس فيه الشخص في هذا المقعد تتجمع الصور المرتبطة بلحظات فتح الباب ودخول الحجرة والذهاب إلى المقعد، كل ذلك في شكل معلومات في الذهن. وبالتالي فإن إدراك الوقت يحدث عندما يقارن المرء بين الشخص

الجالس في المقعد وبين مجموعة المعلومات المتوفرة لديه.

وباختصار فإن الزمن يأتي نتيجة المقارنة بين مجموعة من الصور المختزنة بالذهن، فإن لم يكن للمرء ذاكرة، ما كان ذهنه ليقوم بهذه الاستنتاجات وبالتالي ما كان وُجد لديه أي إدراك للزمن. والسبب في قول المرء إنه في الثلاثين من عمره هو تراكم معلومات مرتبطة بتلك الفترة في ذهنه، فلو لم تكن هناك ذاكرة لما فكَّر المرء في الفترة السابقة من حياته ولما عرف إلا اللحظة التي يعيشها.

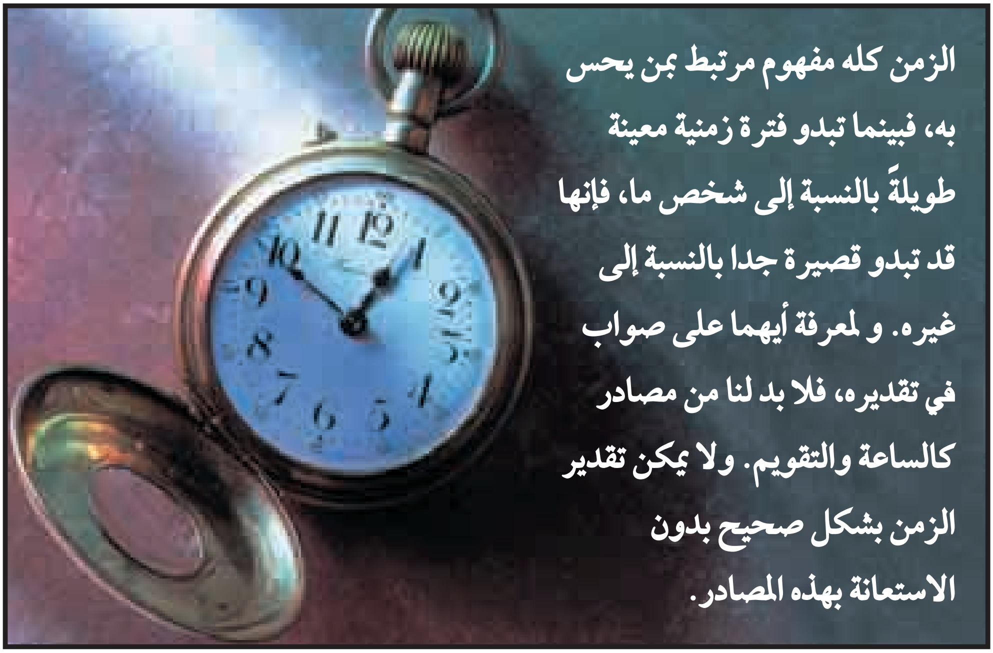
التفسير العلمي للازمنية

سنحاول الآن توضيح هذا الموضوع من خلال تقديم بعض من آراء العلماء والمفكرين الذين أدلوا بدلوهم فيه. وعن تراجع الزمن يقول أستاذ علم الوراثة والمفكر المعروف والحاصل على ميدالية نوبل (فرانسوا يعقوب Francois Jacob**) في كتابه** "Le Jeu des Possibles" **(لعبة الممكنات) ما يلي:**

"إن عرض الأفلام للخلف جعل من الممكن أن نتخيل عالما يسير فيه الزمن للخلف، عالما ينفصل فيه اللبن عن القهوة التي في الفنجان، ويتطاير اللبن في الهواء ليرجع إلى وعائه؛ عالما تخرج فيه حزمة الأشعة من الجدران لتتجمع في مركز جاذبية، بدلا من الخروج من مصدر للضوء؛ عالما يسقط فيه حجر في كف شخص نتيجة تجمع عدد لانهائي من قطرات الماء تجعل الحجر قادرا على القفز من الماء. إلا أنه في مثل هذا العالم الذي تنقلب فيه معالم الزمن، ستنقلب بالتالي عمليات الذهن والطريقة التي تجمع بها الذاكرة المعلومات لتكون للخلف. والشيء نفسه صحيح بالنسبة إلى الماضي والمستقبل حيث سيبدو لنا العالم على ما هو عليه تماما".[190]

وحيث إن أذهاننا اعتادت تسلسلا معينا من الأحداث، فإن العالم لا يعمل بالطريقة التي وصفناها سابقا، ونحن نفترض أن الزمن دائما يسير إلى الأمام، إلا أن هذا استنتاج نسبي توصلت إليه الأذهان، فنحن في الواقع لا نعرف كيفية مرور الزمن أو حتى إذا كان يمر أم لا، وهذا مؤشر إلى أن الزمن ليس حقيقة مطلقة وإنما هو مجرد نوع من الإدراك.

ونسبية الزمن هي حقيقة قام بإثباتها (آينشتاين) الذي يعتبر أكبر عالم فيزيائي في القرن العشرين. وقد كتب (لينكولن بارنت Barnett Lincoln**) في كتابه:** The Universe and Dr. Einstein



(الكون وآينشتاين) عن هذا الموضوع ما يلي:

ومثل الفراغ المطلق، تجاهل آينشتاين مفهوم الزمن المطلق الذي هو زمن عالمي يمر بشكل مستمر وثابت، ويمر من الماضي اللانهائي إلى المستقبل اللانهائي، وينبع كثير من الغموض الذي يحيط بنظرية النسبية من رفض الإنسان الاعتراف بأن الإحساس بالزمن- شأنه شأن الإحساس باللون – هو نوع من الإدراك. ومثلما يعتبر الفضاء منظومة من الأجسام، فكذلك يعتبر الزمن منظومة من الأحداث، وأفضل العبارات التي تصف ذاتية الزمن هي عبارة آينشتاين: ″تبدو لنا خبرات الفرد على شكل سلسلة من الأحداث، وما نتذكره من أحداث منفردة في هذه السلسلة مرتب حسب معيار ″ما قبل″ و″ما بعد″. فللفرد زمن هو ″زمني أنا″، أو زمن ذاتي، وهذا الزمن لا يقاس في حد ذاته. ويمكنني بالفعل إنشاء علاقةٍ ما بين الأحداث والأرقام، بشكل يجعل الرقم المرتبط بحدث لاحق أكبر من الرقم المرتبط بحدث سابقٍ عليه.[191]

ويوضح آينشتاين على حد تعبير بارنت ″أن كلا من الزمن والفضاء هو شكل من أشكال الفطرة لا يمكن فصله عن الوعي، مثلما هي الحال مع مفاهيم اللون والشكل والحجم. وبناء على النظرية النسبية، فإن الزمن ليس له وجود مستقل بمعزل عن تسلسل الأحداث التي نقيسه بها″.[192]

وحيث إن الزمن يعتمد على الإدراك فهو يعتمد بشكل كامل على الشخص، وبالتالي فهو عملية نسبية.

وتتغير سرعة مرور الزمن حسب المعايير التي نعتمدها في قياسه، إذ لا توجد في جسم الإنسان ساعة طبيعية يقيس بها سرعة الزمن بشكل محدد. وكما قال (لينكولن بارنت Lincoln Barnett) "مثلما أنه ليس هناك شيء اسمه لون بدون عين تميز هذا اللون، فليس هناك شيء يسمى لحظة، ولا ساعة، ولا يومًا، إذا لم يكن هناك حدث يحدد الزمن".[193]

وتظهر نسبية الزمن في الأحلام بشكل أوضح، فبالرغم من شعورنا بأن ما شاهدناه قد استغرق ساعات وساعات، فإنه في الواقع قد استغرق مجرد دقائق وربما ثوان.

ولننظر إلى هذا المثال حتى نتعرف على الموضوع بشكل أوضح: لنفترض أننا وُضعنا في حجرة ذات نافذة واحدة مصممة تصميما خاصا، ولنفرض أننا أمضينا بها فترة معينة من الزمن، وأنه وُضعت ساعة على الجدار لمشاهدة ما مضى من الزمن. وفي الوقت نفسه، نشاهد من النافذة الشمس وهي تشرق وتغرب في فترات معينة، فبعد مرور بضعة أيام، وبسؤالنا عن الوقت الذي أمضيناه في تلك الحجرة، سيعتمد جوابنا على تقييم المعلومات التي حصلنا عليها من النظر إلى الساعة من وقت لآخر، ومن حساب المرات التي أشرقت فيها الشمس وغربت، فعلى سبيل المثال إذا حسبنا أننا مكثنا فيها ثلاثة أيام مثلا، و حضر الشخص الذي وضعنا في الحجرة وقال لنا إننا مكثنا في الحجرة يومين فقط، وأن الشمس التي شاهدناها هي شمس اصطناعية، والساعة التي وُضعت في الحجرة ساعة نظمت بشكل خاص لتعمل بشكل سريع، فلن يكون لحسابنا أية قيمة.

هذا المثال يؤكد لنا بوضوح أن معرفتنا لسرعة مرور الزمن إنما تعتمد على مرجعيات نسبية. إن نسبية الزمن حقيقة مجردة ثبتت بطرق علمية. فنظرية النسبية العامة لآينشتاين تؤكد أن سرعة الزمن تتغير حسب سرعة الجسم وحسب بعده عن مركز الجاذبية. فكلما زادت السرعة تناقص الزمن وتكثف وتباطأ حتى يبدو وكأنه يتوقف.

لنشرح هذا بمثال آخر ضربه آينشتاين نفسه: لنتخيل توأمين في العمر نفسه، أحدهما بقي على الأرض بينما قام الآخر برحلة فضائية بسرعة تقترب من سرعة الضوء، عندما يعود التوأم من الفضاء سيجد توأمه أكبر منه سنا، وسبب ذلك أن الزمن يمر بالنسبة إلى التوأم - الذي قام برحلة فضائية بسرعة تقترب من سرعة الضوء - بسرعة أقل كثيرا من سرعته على الأرض.

ويمكن تطبيق المثال نفسه على أب يعمل رجل فضاء وابنه الذي يعيش على الأرض، فلو كان عمر الأب 27 سنة عندما انطلق إلى الفضاء، وعمر الابن 3 سنوات، فعندما يعود الأب إلى الأرض بعد 30 سنة (بزمن الأرض)، فسيكون عمر الابن 33 سنة بينما الأب 30 سنة فقط.[194]

وجدير بالذكر أن نسبية الزمن لا علاقة لها بسرعة عمل الساعة أو بطئها، وإنما ترجع نسبية الزمن إلى التفاوت في فترات عمل كل الأجسام المادية التي تتناهى في الصغر حتى تصل إلى ما هو أصغر من الذرة. وبعبارة أخرى، فإن قِصَر الزمن ليس مثل مشاهدة مشهد سينمائي بالتصوير البطيء، ولكن في ذلك النطاق الذي يقصر فيه الزمن، تكون ضربات القلب وانقسامات الخلايا ووظائف المخ أبطأ مما تكون عليه لدى الشخص الذي يتحرك بسرعة أقل على الأرض، فالمرء يمارس حياته اليومية ولا يلاحظ قصر الزمن. وفي الواقع، لا يبدو ذلك القصر واضحا حتى تتم المقارنة.

النسبية في القرآن

تفيد نتائج معطيات العلم الحديث أن الزمن ليس حقيقة مطلقة كما يزعم الماديون ولكنه مجرد إدراك نسبي، والشيء الأعجب من ذلك أن هذه الحقيقة التي لم يتوصل إليها العلم إلا في القرن العشرين قد تم نقلها إلى البشرية عن طريق القرآن الكريم قبل 14 قرناً من الزمان، ففي آيات القرآن عبارات تؤكد نسبية الزمن.

وفي كثير من آيات القرآن يمكن رؤية الحقيقة التي أثبتها العلم، وهي أن الزمن إدراك نفسي يعتمد على الأحداث والموقف والظروف، فعلى سبيل المثال يخبرنا القرآن أن حياة الإ نسان كلها ما هي إلا زمن قصير.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا﴾ (الإسراء- الآية 52)

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ...﴾ (يونس- الآية 45)

وهناك آيات تشير إلى اختلاف الناس في إحساسهم بالزمن فبعضهم قد يظن الفترة القصيرة جدا فترة طويلة جدا؛ وخير مثال لذلك هو الحوار الذي سيجري بين مجموعة من الناس يوم القيامة:

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا لَوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(المؤمنون - الآية 112-114)

وفي آيات أخرى يخبرنا القرآن أن الزمن تختلف سرعته باختلاف المكان: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج - الآية 47)

﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (المعارج- الآية 4)

﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة- الآية5)

توضح هذه الآيات بما لا يدع مجالا للشك نسبية الزمن، أما إخبار القرآن بهذه النسبية قبل 1400 سنة بينما توصل إليها العلم في القرن العشرين، فهو دليل على نزول القرآن من قِبل الله الذي يحيط بالزمان والمكان.

والعبارات التي يستخدمها القرآن في كثير من آياته تؤكد أن الزمن ما هو إلا إدراك، ويمكن لمس ذلك بوضوح في آيات القصص، فالقرآن يحدثنا في قصة أهل الكهف عن فئة مؤمنة غرقت في نومها أكثر من ثلاثة قرون، ثم يخبرنا أن تلك الفئة بعد قيامها من نومها ظنت أنّها لـم يمض عليها في تلك الحالة إلا وقت قصير، ولـم تستطع تقدير الزمن الذي نامته.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ (الكهف- الآية 11-12)

﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ...﴾ (الكهف- الآية 19)

ويعتبر الموقف المشار إليه في الآية التالية دليلا على أن الزمن في الحقيقة ما هو إلا إدراك نفسي.

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة- الآية 259)

وتبين لنا أيضا هذا الآية وبوضوح أن الله الذي خلق الزمن منزَّه عن الزمن. أما الإنسان فهو مقيَّد بالزمن الذي قدره الله له. فالإنسان لا يستطيع أن يعرف حتى مقدار الزمن الذي يقضيه في النوم. وإذا كان الأمر كذلك، فإن الزعم بأن الزمن حقيقة مطلقة (كما يرى الفكر المادي المنحرف) يعتبر زعماً غير عقلاني.

القدر

إن كون الزمن نسبيا يوضح لنا حقيقة مهمة أخرى، فهذه النسبية متغيرة وغير ثابتة إلى درجة أن فترة زمنية تبدو بالنسبة إلينا مليارات من السنين، قد تكون في بُعد آخر مجرد بضْع ثوان، وبالإضافة إلى ذلك فإن فترة طويلة من الزمن قد تمتد منذ بداية الكون إلى آخره قد لا تستغرق ثانية أو أقل في بُعد آخر.

هنا يكمن لب القدر وحقيقته التي لم يدركها كثير من الناس، والتي لم يشأ الماديون فهمها، فالقدر هو علم الله التام بكل الأحداث الماضية والمستقبلية، ويتساءل كثير من الناس عن كيفية معرفة الله للأحداث التي لم تقع بعد، مما يؤدي بهم إلى عدم فهم حقيقة القدر، "فالأحداث التي لم تقع بعد" هي أحداث لم تقع بعد بالنسبة إلينا فقط، أما الله فهو خارج عن الزمان والمكان، إذ هو خالقهما، فالماضي والحاضر والمستقبل، بالنسبة إلى الله شيء واحد، وكلها بالنسبة إليه حدثت وانتهت.

يتناول لينكولن بارنت كيف تقود نظرية النسبية العامة إلى هذه الحقيقة، وذلك في كتابه (الكون وأينشتاين)، ويرى بارنت أن الكون لا يمكن أن يطوَّق في سلطان شامل إلا بوجود ذهن كوني، ويقصد بارنت بالإرادة التي يسميها "الذهن الكوني" حكمة الله ومعرفته، الله المهيمن على الكون.[195] يعلم الله الزمن الذي نعيش فيه من أوله إلى آخره، تماماً مثلما نرى نحن أيضا أول مسطرة ما ووسطها وآخرها، وما بين ذلك من أجزاء، أما البشر فيعيشون هذه الأحداث حينما يحين زمانها فقط، ويشهدون بذلك القدر الذي قدره الله لهم.

تجدر بنا الإشارة هنا إلى سطحية المفهوم الخاطئ للقدر، السائد في المجتمع، ومن جملة هذا المفهوم الخاطئ عن القدر، اعتقاد باطل بأن الله تعالى قد كتب قدرا للإنسان، إلا أن الناس يستطيعون أحيانا تغيير هذا القدر، فعلى سبيل المثال، عندما يشفَى شخص من مرضه ويتخلص من الموت تجد الناس يطلقون عبارات مثل "لقد انتصر على قدره". بيدَ أنه ليس في

وسع أحد تبديل قدره، ومن تخلص من الموت، فقد تخلص منه لأنه مكتوب عليه أن يتخلص من الموت، وما هو إلا خداع للنفس أن يقول الشخص "تغلبت على قدري"، فحين يقولون هذه الجمل لا يقولونها إلا لأنه مكتوب عليهم أن يقولوها كما أن دخولهم في مثل هذه النفسية هو أيضا قدرهم المكتوب لهم.

إن القدر هو علم الله الأزلي الذي يجمع جميع الأزمنة في آن واحد، فكل شيء بالنسبة إلى الله المسيطر على كل الأزمنة والأمكنة مقرَّر ومكتوب في القدر، ونحن ندرك أن الزمن واحد بالنسبة إلى الله من العبارات القرآنية وأسلوب القرآن، فبعض الأحداث التي ستجري في المستقبل بالنسبة إلينا هي حسب الأسلوب القرآني قد حدثت منذ زمن بعيد وانتهت، فعلى سبيل المثال نجد الآيات التي تقرر محاسبة الله الإنسان يوم القيامة كلها جاءت في صيغة الماضي وأنها حدثت وانتهت:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ. وَأَشْرَقَتْ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ...

وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا ... وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا...﴾ (الزمر- الآية 68-73)

أما الشواهد القرآنية الأخرى على هذا الموضوع فهي:

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (ق- الآية 21)

﴿وَانشَقَّتْ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ (الحاقة- الآية 16)

﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا﴾(الإنسان- الآية 12-13)

﴿وَبُرِّزَتْ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ (النازعات- الآية 36)

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ (المطففين- الآية 34)

﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (الكهف- الآية 53)

وكما يتضح لنا، فإن الأحداث التي سنعيشها بعد الموت (من منظورنا)، قد وردت في القرآن على أنها أحداث جرت وانتهت، ذلك أن الله خارج عن حيز الزمن النسبي الذي نحن في داخله. والله قد كتب كل الأحداث في اللازمان: فالناس قد مرت بكل هذه الأحداث، أما كون كل صغيرة أو كبيرة تحدث بعلم الله وكلها مكتوبة في سجل، فالآية التالية تخبرنا به:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس- الآية ٦١)

قلق الماديين

ما تناولناه بالبحث في هذا الفصل عن أصل المادة، واللازمان، واللامكان، إنما هو في الواقع حقائق واضحة جدا، وكما سبق أن أشرنا، فإن هذه الحقائق ليست ضربا من الفلسفة ولا نموذجا فكريا، وإنما هي نتائج علمية لا يمكن إنكارها. وبالإضافة إلى كونها حقيقة تقنية فإن العقل والمنطق لا يستطيعان تقديم أي أدلة في هذه القضية: فالكون بالكامل إنما هو وَهم بكل العناصر المكونة له والبشر الذين يعيشون فيه. إنه مجموعة من الإدراكات الحسية.

يجد الماديون صعوبة في فهم هذه الحقائق، فلو عدنا إلى حافلة بوليتزر مثلا؛ نجد أنه بالرغم من أن بوليتزر نفسه يعرف جيدا أنه لا يمكنه تقنيا الخروج عن أحاسيسه، فإنه لم يستطع الاعتراف بهذه الحقيقة إلا في حالات معينة فقط، أي أن بوليتزر يرى أن الأحداث التي سبقت اصطدام الحافلة قد جرت في الذهن، أما بعد الصدام فقد خرج الحدث من الذهن فجأة إلى حيز المادية والحقيقة، فالخلل المنطقي هنا واضح للعيان؛ وهنا وقع بوليتزر في الخطأ الذي وقع فيه المادي (جونسون) القائل: إنني ألكم الحجر بقدمي، وقدمي تؤلمني، إذن هي موجودة". فلم يستطع أن يفهم أن الشعور بشدة الصدمة إنما هو مجرد إحساس أيضا.

أما السبب الرئيسي الكامن وراء عدم فهم الماديين لهذه الحقيقة فهو شعورهم بالخوف من النتائج التي سيواجهونها من فهمهم لهذه الحقائق، ويوضح لينكولن بارنت أن هذا الموضوع قد "أدركه" بعض العلماء، حيث يقول:

"إذا كان الفلاسفة يختزلون كل الأجسام المادية إلى عالم ظلي من الإدراكات الحسية، فقد أصبح العلماء على وعي بالتقييدات المثيرة للقلق لحواس الإنسان".(١٩٦)

إن أي إشارة إلى حقيقة أن المادة والزمن هما مجرد أحاسيس يثير الخوف في الشخص المادي، وذلك لأن هذه هي المفاهيم التي يتمسك بها وبشكل ما يؤلهها وذلك لإيمانه أنه خُلق من المادة والزمن (عن طريق التطور).

وإذا ما شعر المادي أن الكون الذي يعيش فيه، والعالم، وذاته، وغيره من الناس، والفلاسفة الذين تأثر بأفكارهم، وباختصار إذا شعر أن كل ذلك إحساس لا غير فإن الرعب والهلع يستوليان عليه، فكل ما وثق به، واعتمد عليه، ولجأ إليه يتلاشى فجأة، في الواقع إنه يعيش الآن ما سيعيشه يوم الحساب، عيشة الذي لا حول له ولا قوة كما ورد في الآية التالية:

﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (النحل- الآية 87)

وهكذا فإن المادي يسعى إلى إقناع نفسه بوجود المادة، ويحاول البحث عن أدلة لذلك مثل لَكْم الجدار، وضرب الحجارة بقدميه، والصراخ، إلا أنه لن يستطيع أبدا الهروب من الحقيقة.

ومثلما يسعى الماديون إلى إلغاء هذه الحقيقة من أذهانهم، فهم يريدون أيضا إبعاد الناس عنها، ذلك أنهم يعرفون جيدا أن الناس إذا ما أدركوا حقيقة المادة، ستظهر بدائية فلسفتهم هم أنفسهم، وستتضح جهالة آرائهم، ولن يبقى هناك أي مجال لبث أفكارهم. هذا هو السبب الحقيقي لقلقهم وتخوفهم، ويقول الله إن مخاوف الذين لا يؤمنون ستزداد في الآخرة، ففي يوم القيامة يقال لهم:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (الأنعام- الآية 22)

أما الكافرون فإنهم سيشهدون ممتكاتهم، وأولادهم، وأخلاءهم - الذين ظنوا أن لهم وجودا حقيقيا وجعلوهم شركاء لله - يفرون منهم، ويهلكون كما أخبرت الآية التالية:

﴿انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام- الآية 24)

مكسب المؤمنين

إذا كانت حقيقة أن المادة والزمن هما إدراك حسي تثير الرعب لدى الماديين، فالعكس هو الصحيح بالنسبة إلى المؤمنين، فالمؤمنون يشعرون بالسعادة عندما يدركون السر وراء المادة، ذلك أن هذه الحقيقة هي المفتاح لجميع الأسئلة، فالمرء الذي ربما يجد صعوبة في الأحوال العادية في فهم كثير من الموضوعات يستطيع فهمها بفضل هذه الحقيقة.

وكما قلنا آنفا، فإن إدراك السر الذي وراء المادة يسهل فهم حقائق مثل الموت والجنة والنار والآخرة والأبعاد المتغيرة وغيرها، كما يعطي بسهولة الإجابة على أسئلة كثيرة مهمة منها؛ "أين الله"، و"ماذا كان قبل الله"، و"مَن خلق الله"، و"كم تستغرق حياة القبر"، وأين الجنة والنار"، و"أين الجنة والنار في الوقت الحالي". كما أن هذه الحقيقة تساعد في فهم كيف خلق الله الكون من العدم وبأي نظام خلقه، حتى إن إدراك هذا السر يجعل أسئلة كثيرة مثل "متى"، و"أين"، أسئلة فارغة لا معنى لها، حيث لا يبقى عندئذ زمان ولا مكان، وإذا ما فُهم اللامكان فسيُفهم أن الجنة والنار والدنيا كلها توجد في المكان نفسه، أما إذا ما فهم اللازمان فسيفهم أن كل شيء يتم في لحظة واحدة: لا يتم انتظار أي شيء ولا يمر الزمن لأن كل شيء قد حدث وانتهى.

بإدراك هذا السرّ ستبدو الدنيا للإنسان المؤمن مثل الجنة ويتلاشى كل القلق والهم والخوف، وسيدرك الإنسان أن للكون حاكما واحدا فقط، وأن ذلك الحاكم يبدل كل الماديات كيفما يشاء، وما على الإنسان إلا التوجه إلى ذلك الحاكم المطلق. وبذلك سيكون الإنسان قد أسلم لله، ﴿...**مُحَرَّرًا**...﴾ (آل عمران 35) إن فهم هذا السر وإدراكه أكبر مكسب في الدنيا.

وبإدراك هذا السر تُفهم حقيقة أخرى وردت في القرآن وهي: حقيقة قرب الله من الا نسان، ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾ (ق- الآية 16)... كما هو معروف فإن عرق الوريد موجود داخل الإنسان، وما الذي يمكن أن يكون أقرب إلى الإنسان من داخله؟ إن هذا الوضع يمكن تفسيره بسهولة بإدراك حقيقة اللامكانية. وكما يلاحظ فإن هذه الآية يمكن أيضا فهمها على نحو أفضل كثيراً عن طريق إدراك هذا السر.

هذه هي الحقيقة، ينبغي ألا يفوتنا هنا أنه ليس للإنسان من ولي ولا نصير إلا الله. لا واجب وجود ينتظر منه الجزاء إلا هو... حيثما توجهنا فوجه الله هناك...

الفصل العشرون

سلسلة المؤتمرات التي نظمتها مؤسسة البحث العلمي SRF:

أنشطة لتوعية المجتمع بزيف نظرية التطور

إن الدعاية لنظرية التطور، التي تصاعدت في الآونة الأخيرة، تشكل تهديدا خطيرا للمعتقدات والقيم الأخلاقية القومية. وقد أخذت مؤسسة البحث العلمي - التي تدرك تماما هذه الحقيقة - على عاتقها توعية المجتمع التركي بهذا الموضوع عن طريق الحقائق العلمية.

المؤتمر الأول - إستنبول

عُقد المؤتمر الأول - في سلسلة المؤتمرات الدولية التي نظمتها مؤسسة البحث العلمي - في الرابع من أبريل سنة 1998 بمدينة إستانبول، وكان تحت عنوان "انهيار نظرية التطور: حقيقة الخلق". وقد حضر هذا المؤتمر - الذي حقق نجاحا كبيرا - مجموعة من العلماء المتخصصين المشهود بكفاءتهم، من مختلف أنحاء العالم، وكان بمثابة أول محفل في تركيا تتم فيه مناقشة نظرية التطور وتفنيدها علميا. وقد حرصت الجماهير من جميع شرائح المجتمع التركي على حضور المؤتمر الذي اجتذب قدرا كبيرا من الاهتمام، حتى إن أولئك الذين لم يجدوا أماكن داخل قاعة المؤتمر، تابعوا أعمال المؤتمر من خارج القاعة عن طريق شبكة تلفزة مغلقة.

وقد ضم المؤتمر متحدثين معروفين من تركيا ومن خارجها. وبعد أن ألقى أعضاء مؤسسة البحث العلمي كلماتهم التي كشفت الدوافع الإيديولوجية الخفية لنظرية التطور، تم





عرض فيلم وثائقي من إعداد مؤسسة البحث العلمي.

ثم قام الدكتور دوان جيش Duane Gish والدكتور كِنِث كامينج- Kenneth Cumming) وهما عالمان معروفان عالميا من معهد أبحاث الخلق Institute for Creation Research، متخصصان في الكيمياء الحيوية وعلم الحفريات، وكلاهما حجة في تخصصه - بإثبات بطلان نظرية التطور بالأدلة الدامغة. وخلال المؤتمر، قام أحد العلماء الأتراك المرموقين - وهو الدكتور جواد بابونا - بشرح المعجزات في كل مرحلة من مراحل خلق الإنسان من خلال عرض بالشرائح المغنطة، هدمَ "افتراض المصادفة" الذي تزعمه نظرية التطور من جذوره.

المؤتمر الثاني - إستانبول

عُقد المؤتمر الثاني - ضمن نفس هذه السلسلة من المؤتمرات الدولية - بعد المؤتمر الأول بثلاثة أشهر، في الخامس من تموز سنة 1998، بقاعة جمال رشيد ري في إستانبول أيضا. وقد ألقى المتحدثون - وهم 6 محاضرين من أمريكا ومحاضر من تركيا - كلمات بينوا فيها كيف أبطل العلم الحديث النظرية الداورينية. وقد امتلأت قاعة جمال رشيد ري - التي تتسع مقاعدها لألف شخص - عن آخرها بجمهور المتابعين للمؤتمر بقدر كبير من الاهتمام.

وفيما يلي بيان موجز عن المحاضرين والموضوعات التي تناولوها في المؤتمر:

أ.د/ مايكل ب. غيروارد Michael P. Girouard): في محاضرة بعنوان "هل يمكن أن تكون الحياة قد نشأت بالصدفة؟"، شرح الأستاذ الدكتور/ مايكل ب. غيروارد - أستاذ الكيمياء في جامعة (ساوثرن لويزيانا) - من خلال أمثلة مختلفة التركيب المعقَّد للبروتينات،

التي تعتبر الوحدات الأساسية للحياة، وخلص إلى أنه لا يمكن أن تكون هذه البروتينات قد وُجدت إلا نتيجة تخطيط ماهر.

أ. د. (إدوارد بودرو Edward Boudreaux): في محاضرة بعنوان "التنظيم في الكيمياء"، أوضح الأستاذ الدكتور/ إدوارد بودرو - أستاذ الكيمياء في جامعة (نيو أورليانز) - أنه لا بد أن تكون بعض العناصر الكيميائية قد نظِّمت بالخلق على نحو مقصود لكي توجد الحياة.

أ.د. (كارل فليارمانز Carl Fliermans): عالم ذو شهرة واسعة في الولايات المتحدة الأمريكية، وأستاذ لعلم الأحياء الدقيقة في جامعة (إنديانا)، وهو يجري أبحاثا تقوم بدعمها وزارة الدفاع الأمريكية حول موضوع "إبطال الآثار السيئة للنفايات الكيميائية عن طريق البكتريا"، وقد فنَّد مزاعم نظرية التطور على مستوى علم الأحياء الدقيقة.

أ.د./ أديب كها: هو المحاضر التركي الوحيد الذي اشترك في هذا المؤتمر، وهو أستاذ للكيمياء الحيوية، وقد قدم معلومات أساسية عن الخلية الحية، وأكد من خلال الأدلة الدامغة أنه لا يمكن أن تكون الخلية قد وُجدت إلا بتصميم واع وإبداع خلاق.

أ.د. (ديفيد مِنتون): أستاذ علم التشريح في جامعة واشنطن. وقد ألقى محاضرة صَحِبها عرض ممتع جدا بالكمبيوتر، وكان موضوعها الفرق التشريحي بين ريش الطيور وحراشف الزواحف، مما يثبت بطلان أطروحة ارتقاء الطيور من الزواحف.

أ.د. دوان جيش: في محاضرته بعنوان "أصل الإنسان"، فنَّد الأستاذ الدكتور/ دوان جيش - وهو من الخبراء المعروفين المتخصصين في الدراسات المتصلة بنظرية التطور - أطروحة ارتقاء الإنسان من القرود.



الدكتور/ دوان جيش - الخبير العالمي المعروف في الدراسات المتصلة بنظرية التطور - وهو يتسلم اللوحة التقديرية، التي منحتها له مؤسسة البحث العلمي، من الدكتور/ نوزات يالجين طاش، عضو البرلمان التركي.

الأستاذ الدكتور/ جون موريس (John Morris) رئيس معهد أبحاث الخلق (Institute for Creation Research)- وهو عالم معروف في الجيولوجيا - ألقى محاضرة حول الاتجاهات الأيديولوجية والفلسفية الكامنة وراء نظرية التطور، وأوضح كذلك أن هذه النظرية قد تحولت إلى عقيدة وأن المدافعين عنها يؤمنون بالداروينية ويتحمسون لها وكأنها دين من الأديان.



الأستاذ الدكتور
(إدوارد بودرو):
"إن العالم الذي نعيش فيه ونواميسه الطبيعية، قد وضعها الله بمنتهى الدقة لصالحنا نحن البشر".



الأستاذ الدكتور
(ديفيد منتون):
"منذ 30 سنة وأنا أدرس تشريح الأحياء. وإن كل ما شاهدتُه كان يدل دائما على إبداع خلق الله".



الأستاذ الدكتور
(دوان جيش):
"إن سجل الحفريات يدحض نظرية التطور، وهو يثبت أن الأجناس قد ظهرت على الأرض في صورة مكتملة وتصميم بديع. وهذا يدل دلالة قاطعة على أن الله هو الذي خلقها".



الأستاذ الدكتور
(كارل فلايرمانز):
"يؤكد علم الكيمياء الحيوية الحديث أن الكائنات الحية ذات تصميم رائع في بنائها، وهذه الحقيقة وحدها كافية لإثبات وجود الله".

وبعد الاستماع إلى كل هذه الكلمات، تأكد الحاضرون أن نظرية التطور عقيدة يبطلها العلم من جميع جوانبها. وبالإضافة إلى ذلك، فإن معرض اللافتات تحت عنوان "انهيار نظرية التطور: حقيقة الخلق" – الذي نظمته مؤسسة البحث العلمي وأقيم في صالة قاعة جمال رشيد ري – قد اجتذب قدرا كبيرا من الاهتمام. وقد تكوَّن المعرض من 35 لافتة، أبرزت كل منها إما أحد مزاعم النظرية أو برهانا على حقيقة الخلق.

المؤتمر الثالث – أنقرة

عُقد المؤتمر الثالث – ضمن هذه السلسلة نفسها من المؤتمرات الدولية – في الثاني عشر من يوليو 1998، في قاعة المحاضرات في فندق شيرتون في أنقرة. وقد قدم المحاضرون المشاركون في المؤتمر – وهم ثلاثة من أمريكا ومحاضر من تركيا – أدلة علمية قطعية مدعومة بالعلم الحديث مفادها أن الداروينية باطلة.

وبالرغم من أن قاعة شيراتون–أنقرة، جهِّزت لتسع ألف مستمع. فإن الوافدين لسماع المحاضرات كانوا 2500. وقد تم إعداد الشاشات خارج قاعة المؤتمر، ليتابعه مِن خلالها مَن لم يجد مكانا مناسبا له داخل القاعة. وقد اجتذب كذلك معرض اللافتات – الذي أقيم بجوار

مشاهد من المؤتمرات القومية التي عقدتها مؤسسة البحث العلمي



مؤتمر شانلي أورفة



مؤتمر أنقرة



مؤتمر باليكسير



مؤتمر إزمير



مؤتمر كايسيري



مؤتمر سامصون



مؤتمر بورصة



مؤتمر غيراصون



قاعة المؤتمر تحت عنوان "انهيار نظرية التطور: وحقيقة الخلق" - قدراً كبيراً من الاهتمام. وفي ختام المؤتمر، وقف الحاضرون معبِّرين عن احتفائهم الكبير بالمتحدثين، وهو ما أثبت أن الجماهير تتوق بشدة إلى تبصيرها بالحقائق العلمية المتصلة بخدعة التطور وبحقيقة الخلق.

وبعد نجاح هذه المؤتمرات الدولية، بدأت مؤسسة البحث العلمي في تنظيم مؤتمرات مماثلة في جميع أنحاء تركيا. وفي الفترة بين أغسطس 1998 ومايو 1999 فقط، تم عقد 60 مؤتمرا في مدن مختلفة. وتواصل مؤسسة البحث العلمي عقد مؤتمراتها في أنحاء مختلفة من البلاد.

قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

(البقرة: 32)

NOTES

1 Cliff, Conner, "Evolution vs. Creationism: In Defense of Scientific Thinking", *International Socialist Review* (Monthly Magazine Supplement to the Militant), November 1980.
2 Ali Demirsoy, *Kalıtım ve Evrim (Inheritance and Evolution),* Ankara: Meteksan Publishing Co., 1984, p. 61.
3 Michael J. Behe, *Darwin's Black Box,* New York: Free Press, 1996, pp. 232-233.
4 Richard Dawkins, *The Blind Watchmaker,* London: W. W. Norton, 1986, p. 159.
5 Dan Graves, *Science of Faith: Forty-Eight Biographies of Historic Scientists and Their Christian Faith,* Grand Rapids, MI, Kregel Resources.
6 *Science, Philosophy, And Religion: A Symposium,* 1941, CH.13.
7 J. De Vries, *Essential of Physical Science,* Wm. B. Eerdmans Pub. Co., Grand Rapids, SD 1958, p. 15.
8 H. S. Lipson, "A Physicist's View of Darwin's Theory", *Evolution Trends in Plants,* Vol 2, No. 1, 1988, p. 6.
9 Although Darwin came up with the claim that his theory was totally independent from that of Lamarck's, he gradually started to rely on Lamarck's assertions. Especially the 6th and the last edition of *The Origin of Species* is full of examples of Lamarck's "inheritance of acquired traits". See Benjamin Farrington, *What Darwin Really Said,* New York: Schocken Books, 1966, p. 64.
10 Steven M. Stanley, *Macroevolution: Pattern and Process,* San Francisco: W. H. Freeman and Co. 1979, pp. 35, 159.
11 Colin Patterson, "Cladistics", Interview with Brian Leek, Peter Franz, March 4, 1982, BBC.
12 Stephen Jay Gould, "The Return of Hopeful Monsters", *Natural History,* Vol 86, July-August 1977, p. 28.
13 Charles Darwin, *The Origin of Species: A Facsimile of the First Edition,* Harvard University Press, 1964, p. 189.
14 *Ibid*, p. 177.
15 B. G. Ranganathan, *Origins?,* Pennsylvania: The Banner Of Truth Trust, 1988.
16 Warren Weaver, "Genetic Effects of Atomic Radiation", *Science,* Vol 123, June 29, 1956, p. 1159.
17 Gordon R. Taylor, *The Great Evolution Mystery,* New York: Harper & Row, 1983, p. 48.
18 Michael Pitman, *Adam and Evolution,* London: River Publishing, 1984, p. 70.
19 Charles Darwin, *The Origin of Species: A Facsimile of the First Edition,* Harvard University Press, 1964, p. 179.
20 *Ibid,* pp. 172, 280.
21 Derek V. Ager, "The Nature of the Fossil Record", *Proceedings of the British Geological Association,* Vol 87, 1976, p. 133.
22 Mark Czarnecki, "The Revival of the Creationist Crusade", *MacLean's,* January 19, 1981, p. 56.
23 T. Neville George, "Fossils in Evolutionary Perspective", *Science Progress,* Vol 48, January 1960, pp. 1, 3.
24 David Raup, "Conflicts Between Darwin and Paleontology", *Bulletin, Field Museum of Natural History,* Vol 50, January 1979, p. 24.
25 Richard Monastersky, "Mysteries of the Orient", *Discover,* April 1993, p. 40.
26 Richard Dawkins, *The Blind Watchmaker,* London: W. W. Norton 1986, p. 229.
27 Douglas J. Futuyma, *Science on Trial,* New York: Pantheon Books, 1983, p. 197.
28 Charles Darwin, *The Origin of Species: A Facsimile of the First Edition,* Harvard University Press, 1964, p. 302.
29 Stefan Bengston, *Nature,* Vol. 345, 1990, p. 765.
30 Gerald T. Todd, "Evolution of the Lung and the Origin of Bony Fishes: A Casual Relationship", *American Zoologist,* Vol 26, No. 4, 1980, p. 757.
31 R. L. Carroll, *Vertebrate Paleontology and Evolution,* New York: W. H. Freeman and Co. 1988, p. 4.
32 Edwin H. Colbert, M. Morales, *Evolution of the Vertebrates,* New York: John Wiley and Sons, 1991, p. 99.
33 Jean-Jacques Hublin, *The Hamlyn Encyclopædia of Prehistoric Animals,* New York: The Hamlyn Publishing Group Ltd., 1984, p. 120.
34 Jacques Millot, "The Coelacanth", *Scientific American,* Vol 193, December 1955, p. 39.
35 *Bilim ve Teknik Magazine*, November 1998, No: 372, p. 21.
36 Robert L. Carroll, *Vertebrate Paleontology and Evolution,* New York: W. H. Freeman and Co., 1988, p. 198.
37 Engin Korur, "Gözlerin ve Kanatların Sırrı" (The Mystery of the Eyes and the Wings), *Bilim ve Teknik,* No. 203, October 1984, p. 25.
38 *Nature,* Vol 382, August, 1, 1996, p. 401.
39 Carl O. Dunbar, *Historical Geology,* New York: John Wiley and Sons, 1961, p. 310.
40 L. D. Martin, J. D. Stewart, K. N. Whetstone, *The Auk,* Vol 98, 1980, p. 86.
41 *Ibid*, p. 86; L. D. Martin "Origins of Higher Groups of Tetrapods", *Ithaca,* New York: Comstock Publising Association, 1991, pp. 485, 540.
42 S. Tarsitano, M. K. Hecht, *Zoological Journal of the Linnaean Society,* Vol 69, 1985, p. 178; A. D. Walker, *Geological Magazine,* Vol 177, 1980, p. 595.
43 Pat Shipman, "Birds do it... Did Dinosaurs?", *New Scientist,* February 1, 1997, p. 31.
44 "Old Bird", *Discover,* March 21, 1997.
45 *Ibid*.
46 Pat Shipman, "Birds Do It... Did Dinosaurs?", p. 28.
47 S. J. Gould & N. Eldredge, *Paleobiology,* Vol 3, 1977, p. 147.
48 Pat Shipman, "Birds Do It... Did Dinosaurs?", p. 28.

49 *Ibid*.
50 Roger Lewin, "Bones of Mammals, Ancestors Fleshed Out", *Science,* vol 212, June 26, 1981, p. 1492.
51 George Gaylord Simpson, *Life Before Man,* New York: Time-Life Books, 1972, p. 42.
52 R. Eric Lombard, "Review of Evolutionary Principles of the Mammalian Middle Ear, Gerald Fleischer", *Evolution,* Vol 33, December 1979, p. 1230.
53 David R. Pilbeam, "Rearranging Our Family Tree", *Nature,* June 1978, p. 40.
54 Earnest A. Hooton, *Up From The Ape,* New York: McMillan, 1931, p. 332.
55 Malcolm Muggeridge, *The End of Christendom,* Grand Rapids, Eerdmans, 1980, p. 59.
56 Stephen Jay Gould, "Smith Woodward's Folly", *New Scientist,* February 5, 1979, p. 44.
57 Kenneth Oakley, William Le Gros Clark & J. S, "Piltdown", *Meydan Larousse,* Vol 10, p. 133.
58 Stephen Jay Gould, "Smith Woodward's Folly", *New Scientist,* April 5, 1979, p. 44.
59 W. K. Gregory, "Hesperopithecus Apparently Not An Ape Nor A Man", *Science,* Vol 66, December 1927, p. 579.
60 Philips Verner Bradford, Harvey Blume, *Ota Benga: The Pygmy in The Zoo,* New York: Delta Books, 1992.
61 David Pilbeam, "Humans Lose an Early Ancestor", *Science,* April 1982, pp. 6-7.
62 Solly Zuckerman, *Beyond The Ivory Tower,* New York: Toplinger Publications, 1970, pp. 75-94.
63 Charles E. Oxnard, "The Place of Australopithecines in Human Evolution: Grounds for Doubt", *Nature,* Vol 258, p. 389.
64 Fred Spoor, Bernard Wood, Frans Zonneveld, "Implication of Early Hominid Labryntine Morphology for Evolution of Human Bipedal Locomotion", *Nature,* Vol 369, June 23, 1994, pp. 645-648.
65 Holly Smith, *American Journal of Physical Antropology,* Vol 94, 1994, pp. 307-325.
66 Fred Spoor, Bernard Wood, Frans Zonneveld, "Implication of Early Hominid Labryntine Morphology for Evolution of Human Bipedal Locomotion", *Nature,* vol 369, June 23, 1994, p. 645-648.
67 Tim Bromage, *New Scientist,* vol 133, 1992, p. 38-41.
68 J. E. Cronin, N. T. Boaz, C. B. Stringer, Y. Rak, "Tempo and Mode in Hominid Evolution", *Nature,* Vol 292, 1981, p. 113-122.
69 C. L. Brace, H. Nelson, N. Korn, M. L. Brace, *Atlas of Human Evolution,* 2.b. New York: Rinehart and Wilson, 1979.
70 Alan Walker, *Scientific American,* vol 239 (2), 1978, p. 54.
71 Marvin Lubenow, *Bones of Contention,* Grand Rapids, Baker, 1992, p. 83.
72 Boyce Rensberger, *The Washington Post,* November 19, 1984.
73 *Ibid*.
74 Richard Leakey, *The Making of Mankind,* London: Sphere Books, 1981, p. 62.
75 Marvin Lubenow, *Bones of Contention,* Grand Rapids, Baker, 1992. p. 136.
76 Erik Trinkaus, "Hard Times Among the Neanderthals", Natural History, vol 87, December 1978, p. 10; R. L. Holloway, "The Neanderthal Brain: What Was Primitive", *American Journal of Physical Anthropology Supplement,* Vol 12, 1991, p. 94.
77 Alan Walker, *Science,* vol 207, 1980, p. 1103.
78 A. J. Kelso, *Physical Antropology,* 1st ed., New York: J. B. Lipincott Co., 1970, p. 221; M. D. Leakey, *Olduvai Gorge,* Vol 3, Cambridge: Cambridge University Press, 1971, p. 272.
79 S. J. Gould, *Natural History, Vol* 85, 1976, p. 30.
80 *Time,* November 1996.
81 L. S. B. Leakey, *The Origin of Homo Sapiens,* ed. F. Borde, Paris: UNESCO, 1972, p. 25-29; L. S. B. Leakey, *By the Evidence,* New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1974.
82 "Is This The Face of Our Past", *Discover*, December 1997, pp. 97-100.
83 A. J. Kelso, *Physical Anthropology,* 1.b., 1970, pp. 221; M. D. Leakey, *Olduvai Gorge,* Vol 3, Cambridge: Cambridge University Press, 1971, p. 272.
84 Donald C. Johanson & M. A. Edey, *Lucy: The Beginnings of Humankind,* New York: Simon & Schuster, 1981, p. 250.
85 *Science News*, Vol 115, 1979, pp. 196-197.
86 Ian Anderson, *New Scientist*, Vol 98, 1983, p. 373.
87 Russell H. Tuttle, *Natural History*, March 1990, pp. 61-64.
88 Ruth Henke, "Aufrecht aus den Baumen", *Focus,* Vol 39, 1996, p. 178.
89 Elaine Morgan, *The Scars of Evolution,* New York: Oxford University Press, 1994, p. 5.
90 Solly Zuckerman, *Beyond The Ivory Tower,* New York: Toplinger Publications, 1970, p. 19.
91 W. R. Bird, *The Origin of Species Revisited.,* Nashville: Thomas Nelson Co., 1991, pp. 298-99.
92 "Hoyle on Evolution", *Nature,* Vol 294, November 12, 1981, p. 105.
93 Ali Demirsoy, *Kalıtım ve Evrim (Inheritance and Evolution),* Ankara: Meteksan Publishing Co., 1984, p. 64.
94 W. R. Bird, *The Origin of Species Revisited.* Nashville: Thomas Nelson Co., 1991, p. 304.
95 *Ibid*, p. 305.
96 J. D. Thomas, *Evolution and Faith.* Abilene, TX, ACU Press, 1988. p. 81-82.
97 Robert Shapiro, *Origins: A Sceptics Guide to the Creation of Life on Earth,* New York, Summit Books, 1986. p.127.
98 Fred Hoyle, Chandra Wickramasinghe, *Evolution from Space,* New York, Simon & Schuster, 1984, p. 148.
99 *Ibid*, p. 130.
100 *Fabbri Britannica Bilim Ansiklopedisi (Fabbri Britannica Science Encyclopaedia),* vol 2, No 22, p. 519.
101 Richard B. Bliss & Gary E. Parker, *Origin of Life,* California: 1979, p. 14.

102 Stanley Miller, *Molecular Evolution of Life: Current Status of the Prebiotic Synthesis of Small Molecules,* 1986, p. 7.
103 Kevin Mc Kean, *Bilim ve Teknik*, No 189, p. 7.
104 J. P. Ferris, C. T. Chen, "Photochemistry of Methane, Nitrogen, and Water Mixture As a Model for the Atmosphere of the Primitive Earth", *Journal of American Chemical Society*, vol 97:11, 1975, p. 2964.
105 "New Evidence on Evolution of Early Atmosphere and Life", *Bulletin of the American Meteorological Society,* vol 63, November 1982, p. 1328-1330.
106 Richard B. Bliss & Gary E. Parker, *Origin of Life,* California, 1979, p. 25.
107 W. R. Bird, *The Origin of Species Revisited,* Nashville: Thomas Nelson Co., 1991, p. 325.
108 Richard B. Bliss & Gary E. Parker, *Origin of Life,* California: 1979, p. 25.
109 *Ibid*.
110 S. W. Fox, K. Harada, G. Kramptiz, G. Mueller, "Chemical Origin of Cells", *Chemical Engineering News*, June 22, 1970, p. 80.
111 Frank B. Salisbury, "Doubts about the Modern Synthetic Theory of Evolution", *American Biology Teacher*, September 1971, p. 336.
112 Paul Auger, *De La Physique Theorique a la Biologie,* 1970, p. 118.
113 Francis Crick, *Life Itself: It's Origin and Nature,* New York, Simon & Schuster, 1981, p. 88.
114 Ali Demirsoy, *Kalıtım ve Evrim (Inheritance and Evolution),* Ankara: Meteksan Publishing Co., 1984, p. 39.
115 Homer Jacobson, "Information, Reproduction and the Origin of Life", *American Scientist,* January 1955, p.121.
116 Reinhard Junker & Siegfried Scherer, "Entstehung Gesiche Der Lebewesen", *Weyel,* 1986, p. 89.
117 Michael Denton, *Evolution: A Theory in Crisis.* London: Burnett Books, 1985, p. 351.
118 John Horgan, "In the Beginning", *Scientific American,* vol. 264, February 1991, p. 119.
119 G.F. Joyce, L. E. Orgel, "Prospects for Understanding the Origin of the RNA World", *In the RNA World,* New York: Cold Spring Harbor Laboratory Press, 1993, p. 13.
120 Jacques Monod, *Chance and Necessity,* New York: 1971, p.143.
121 Leslie E. Orgel, "The Origin of Life on the Earth", *Scientific American*, Ekim 1994, vol. 271, p. 78.
122 Chandra Wickramasinghe, Interview in *London Daily Express,* August 14, 1981.
123 Jeremy Rifkin, *Entropy: A New World View*, New York, Viking Press, 1980, p.6
124 J. H. Rush, *The Dawn of Life*, New York, Signet, 1962, p 35
125 Roger Lewin, "A Downward Slope to Greater Diversity", Science, vol. 217, 24.9.1982, p. 1239
126 George P. Stravropoulos, "The Frontiers and Limits of Science", *American Scientist*, vol. 65, November-December 1977, p.674
127 Jeremy Rifkin, Entropy: *A New World View*, p.55
128 For further info, see: Stephen C. Meyer, "The Origin of Life and the Death of Materialism", *The Intercollegiate Review,* 32, No. 2, Spring 1996
129 Charles B. Thaxton, Walter L. Bradley & Roger L. Olsen The Mystery of Life's Origin: Reassessing Current Theories, 4. edition, Dallas, 1992. chapter 9, p. 134
130 Ilya Prigogine, Isabelle Stengers, Order Out of Chaos, New York, Bantam Books, 1984, p. 175
131 Robert Shapiro, Origins: A Sceptics Guide to the Creation of Life on Earth. Summit Books, New York: 1986, s. 207
132 Pierre-P Grassé, *Evolution of Living Organisms,* New York: Academic Press, 1977, p. 103.
133 *Ibid,* p. 107.
134 Norman Macbeth, *Darwin Retried: An Appeal to Reason.* Boston: Gambit, 1971, p. 101.
135 Loren C. Eiseley, *The Immense Journey,* Vintage Books, 1958, p. 186.
136 Charles Darwin, *The Origin of Species: A Facsimile of the First Edition,* Harvard University Press, 1964, p. 184.
137 Norman Macbeth, *Darwin Retried: An Appeal to Reason,* Harvard Common Press, New York: 1971, p. 33.
138 *Ibid,* p. 36.
139 Loren Eiseley, *The Immense Journey,* Vintage Books, 1958. p. 227.
140 Stuart B. Levy, "The Challange of Antibiotic Resistance", *Scientific American*, March 1998, p. 35.
141 *Medical Tribune,* December 29, 1988, pp. 1, 23.
142 Francisco J. Ayala, "The Mechanisms of Evolution", *Scientific American,* Vol 239, September 1978, p. 64.
143 S. R. Scadding, "Do 'Vestigial Organs' Provide Evidence for Evolution?", *Evolutionary Theory*, Vol 5, May 1981, p. 173.
144 *The Merck Manual of Medical Information, Home edition,* New Jersey: Merck & Co., Inc. The Merck Publishing Group, Rahway, 1997.
145 H. Enoch, *Creation and Evolution,* New York: 1966, pp. 18-19.
146 Frank Salisbury, "Doubts About the Modern Synthetic Theory of Evolution", *American Biology Teacher*, September 1971, p. 338.
147 Michael Denton, *Evolution: A Theory in Crisis.* London, Burnett Books, 1985, p. 145.
148 W. R. Bird, *The Origin of Species Revisited,* Thomas Nelson Co., Nashville: 1991, pp. 98-99; Percival Davis, Dean Kenyon, *Of Pandas and People,* Haughton Publishing Co., 1990, pp. 35-38.
149 W. R. Bird, *The Origin of Species Revisited,* pp. 98-99, 199-202.
150 Michael Denton. *Evolution: A Theory in Crisis.* London: Burnett Books, 1985, pp. 290-91.
151 G. G. Simpson, W. Beck, *An Introduction to Biology,* New York, Harcourt Brace and World, 1965, p. 241.

152 Keith S. Thompson, "Ontogeny and Phylogeny Recapitulated", *American Scientist,* Vol 76, May/June 1988, p. 273.
153 Francis Hitching, *The Neck of the Giraffe: Where Darwin Went Wrong,* New York: Ticknor and Fields 1982, p. 204.
154 Richard Lewontin, "The Demon-Haunted World", *The New York Review of Books,* January 9, 1997, p. 28.
155 Robert Shapiro, *Origins: A Sceptics Guide to the Creation of Life on Earth.* Summit Books, New York: 1986, p. 207.
156 Hoimar Von Dithfurt, *Im Anfang War Der Wasserstoff (Secret Night of the Dinosaurs),* Vol 2, p. 64.
157 Ali Demirsoy, *Kalıtım ve Evrim (Inheritance and Evolution),* Ankara: Meteksan Publishing Co., 1984, p. 61.
158 *Ibid*, p. 61.
159 *Ibid,* p. 94.
160 Bilim ve Teknik, July 1989, Vol. 22, No.260, p.59
161 Grzimeks Tierleben Vögel 3, Deutscher Taschen Buch Verlag, Oktober 1993, p.92
162 David Attenborough, Life On Earth: A Natural History, Collins British Broadcasting Corporation, June 1979, p.236
163 David Attenborough, Life On Earth: A Natural History, Collins British Broadcasting Corporation, June 1979, p.240
164 "The Structure and Properties of Spider Silk", Endeavour, January 1986, vol. 10, pp.37-43
165 Görsel Bilim ve Teknik Ansiklopedisi, pp.185-186
166 Walter Metzner, http://cnas.ucr.edu/ ~bio/ faculty/Metzner.html
167 National Geographic, September 1995, p.98
168 Bilim ve Teknik, January 1990, pp.10-12
169 David Attenborough, Life of Birds, Princeton Universitye Press, Princeton-New Jersey, 1998, p.47
170 James L.Gould, Carol Grant Gould, Life at the Edge, W.H.Freeman and Company, 1989, pp.130-136
171 David Attenborough, The Private Life of Plants, Princeton Universitye Press, Princeton-New Jersey, 1995, pp.81-83
172 Encyclopedia of Reptiles and Amphibians, Published in the United States by Academic Press, A Division of Harcourt Brace and Company, p.35
173 Frederick Vester, Denken, Lernen, Vergessen, vga, 1978, p.6
174 George Politzer, Principes Fondamentaux de Philosophie, Editions Sociales, Paris 1954, pp.38-39-44
175 R.L.Gregory, Eye and Brain: The Psychology of Seeing, Oxford University Press Inc. New York, 1990, p.9
176 Lincoln Barnett, The Universe and Dr.Einstein, William Sloane Associate, New York, 1948, p.20
177 Orhan Hançerlioğlu, Düşünce Tarihi (The History of Thought), Istanbul: Remzi Bookstore, 6.ed., September 1995, p.447
178 V.I.Lenin, Materialism and Empirio-criticism, Progress Publishers, Moscow, 1970, p.14
179 Bertrand Russell, ABC of Relativity, George Allen and Unwin, London, 1964, pp.161-162
180 R.L.Gregory, Eye and Brain: The Psychology of Seeing, Oxford University Press Inc. New York, 1990, p.9
181 Ken Wilber, Holographic Paradigm and Other Paradoxes, p.20
182 George Politzer, Principes Fondamentaux de Philosophie, Editions Sociales, Paris 1954, p.53
183 Orhan Hançerlioğlu, Düşünce Tarihi (The History of Thought), Istanbul: Remzi Bookstore, 6.ed., September 1995, p.261
184 George Politzer, Principes Fondamentaux de Philosophie, Editions Sociales, Paris 1954, p.65
185 Paul Davies, Tanrı ve Yeni Fizik, (God and The New Physics), translated by Murat Temelli, Im Publishing, Istanbul 1995, s.180-181
186 Rennan Pekünlü, "Aldatmacanın Evrimsizliği", (Non-Evolution of Deceit) Bilim ve Ütopya, December 1998 (V.I.Lenin, Materialism and Empirio-criticism, Progress Publishers, Moscow, 1970, pp.334-335)
187 Alaettin Şenel, "Evrim Aldatmacası mı?, Devrin Aldatmacası mı?", (Evolution Deceit or Deceit of the Epoch?) Bilim ve Ütopya, December 1998
188 Imam Rabbani Hz. Mektupları (Letters of Rabbani), Vol.II, 357. Letter, p.163
189 Imam Rabbani Hz. Mektupları (Letters of Rabbani), Vol.II, 470. Letter, p.1432
190 François Jacob, Le Jeu des Possibles, University of Washington Press, 1982, p.111
191 Lincoln Barnett, The Universe and Dr.Einstein, William Sloane Associate, New York, 1948, pp. 52-53
192 Lincoln Barnett, The Universe and Dr.Einstein, William Sloane Associate, New York, 1948, p.17
193 Lincoln Barnett, The Universe and Dr.Einstein, William Sloane Associate, New York, 1948, p.58.
194 Paul Strathern, The Big Idea: Einstein and Relativity, Arrow Books, 1997, p. 57
195 Lincoln Barnett, The Universe and Dr.Einstein, William Sloane Associate, New York, 1948, p.84
196 Lincoln Barnett, The Universe and Dr.Einstein, William Sloane Associate, New York, 1948, pp.17-18